
الهيئة العامة لقصور الثقافة
محمد
الرسالة والرسول
د. نظمي لوقا

إهداء ٢٠١٥

الهيئة العامة لقصور الثقافة

جمهورية مصر العربية

محمد الرسالة والرسول

تأليف:
د. نظمى لوقا





الهيئة العامة لقصور الثقافة

المتابعة والتنفيذ
عمرو حمدى

• محمد الرسالة والرسول
• د. نظمى لوقا
• تصميم الغلاف:
د. خالد سرور
هذه الطبعة
الهيئة العامة لقصور الثقافة
• رقم الإيداع: ١٥٢٢١ / ٢٠١٤
• الترقيم الدولى: 978-977 718 768 X

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

محمد الرسالة والرسول

تعريف

بقلم السيد

كمال الدين حسين

وزير التربية والتعليم للجمهورية العربية المتحدة

بسم الله الرحمن الرحيم

ما الإسلام ؟

وما المسيحية ؟

وما الموسوية الحق ؟

هل هى إلا أديان سماوية تنزلت على البشر فى مراحل مختلفة من حياتهم ، ليستشرفوا إلى المثل العليا ، ويستمسكوا بالخلق والفضيلة ، ويتعاونوا على البر والتقوى ، ويرتبطوا إلى الله الخالق الرحمان القـــادر ارتباط الحب والرجاء والخشية ، فيعيشوا ماعاشوا على الأرض إخوة متحابين ،

يجمعهم على الفضائل الإنسانية إيمان مشترك بالله الواحد الذى الذى خلقهم وإليه مصيرهم جميعاً فى يوم لاريب فيه ؟ . . .

• إيمان بالله الواحد . . .

• تطلع إلى المثل العليا فى التعايش الإنسانى . . .

• استمساك بالخلق والفضيلة فى السلوك الفردى والاجتماعى . . .

• أخوة إنسانية جامعة تحصن البشر ضد الأثرة والاستعلاء والبغى ، وتربط بعضهم إلى بعض برباط الحب والتعاون . . .

• رجاء مشترك إلى الله أن يشملهم ، يوم يصيرون إليه ، بالرحمة والرضوان .

تلك هى المبادئ العامة فى ديننا المشترك ، نستحضرها جميعاً فكرة ويقيناً فى كل صلاة نصليها ، وفى كل صيام نرتفع به فوق مستوى شهواتنا ، وفى كل زكاة نؤديها لنؤكد الأخوة الإنسانية بين بعضنا وبعض ، وفى كل رحلة حج نرحلها من قريب أو من بعيد لنصل رحم الإنسانية المؤمنة بالله .

مبادئ عامة لا يختلف فى الإيمان بها ذو دين عن ذى دين غيره ، على تعدد الأسماء والصفات والبقاع والمجتمعات

وما يستتبع تعددها من اختلاف فى بعض الموازين أو فى بعض الوسائل .

دعوة واحدة ، تنزلت من إله واحد ، لعالم واحد ، تعاقبت أجياله على نسب مشترك من عهد آدم وحواء ، وتعاقب أنبياؤه برسالات ربهم إلى جيل بعد جيل من هؤلاء الأجيال ، ليكونوا تعبيراً متطوراً لمعنى تلك الدعوة يتلاءم مع تطور هؤلاء الأجيال ، من غير نقص فيها ولا زيادة ، لأنها دعوة أزلية أبدية منذ خلق الله الخلق إلى أن يجمعهم فى ساحة رحمته وعدله .

موسى ... وعيسى ... ومحمد ...

هم أنبياء هذه الدعوة الواحدة الأزلية الأبدية لايختلف أحد منهم عن أحد فى مبدأ من مبادئها ولا غاية من غاياتها ، وإنما اختلفت الأزمان وتطورت الجماعات من عهد نبى منهم إلى عهد نبى ، فكان التعبير المتطور لمعنى تلك الدعوة على لسان كل نبى ، والغاية واحدة والإيمان واحد والإله واحد . . .

معنى لم يفطن له كثير من الناس فى كثير من العصور ، وفطن له مؤلف هذا الكتاب ، فأضاء مصباحاً قوى الضوء خليقاً بأن يهدى إلى طريق الرشاد .

كتاب عن « محمد » الرسول . . .

خطرت فكرته على قلب مسيحى عربى يؤمن بالله ، ويؤمن بالعقل ، ويؤمن بالإنسانية . . .

— درس محمداً إنساناً . . .

— ودرسه داعياً لدين ، ومرشداً إلى هدى . . .

— ودرس دينه مرحلة من مراحل التطور الحضارى فى المجتمع الإنسانى . . .

— ودرسه نبياً ورسولا . . .

— فآمن إيمان القلب والعقل جميعاً بأنه نبىّ رسول بقلب المؤمن ، وعقل الإنسان ، وفكر الباحث ، درس « نظمى لوقا » حياة « محمد بن عبد الله » ، ثم أفرغ دراسته موجزة فى هذا الكتاب ؛ ليكون لبنة فى أساس بناء وحدة فكرية وروحية تجمع قومنا على إيمان مشترك بالله الواحد وبالفضيلة ، وبالمثل الإنسانية ، وبالقيم الروحية . . .

إننا ــ نحن المسلمين والمسيحيين من أبناء الأمة العربية ــ نتعرض فى هذه الأيام لكيد شديد يتربص بنا من يمين وشمال . . .

دعوات آثمة ترد إلينا من الشرق ومن الغرب ، لنتخلى عن ديننا ، ونتحلل من روابطنا ، ونتنكر لمثلنا ومبادئنا ، ونكفر بالله الواحد لنعتنق دين « سارتر » أودين « كارل ماركس » ! .

الشيوعية الملحدة فى الشرق ، والوجودية المنحلة فى الغرب ، تحاولان فى هذه الأيام ، متعاونتين أو متنافستين أن تقضيا على مقوماتنا ، وعلى وجودنا ، وعلى إرادتنا وإنسانيتنا بالقضاء على ديننا ، وعلى إيماننا بالله الواحد ، لنقع فريسة سهلة لأى المسكرين المتعاونين على الفساد ، المتنافسين فى الشر والمنكر ...

ونحن — المسلمين والمسيحيين فى هذه الأرض المباركة ، أرض النبوات ، مهبط الوحى ، وطن الحب والسلام والرحمة ، مشرق الحضارة الإنسانية — لا نريد ولا يريد الله أن تنتكس الإنسانية فى وطننا ، ولا أن يرتكس فى الفساد والإثم قومنا ، ولا أن نذل بعد عزة فى أوطاننا ، وديننا هو حصن قوتنا ، وهو درع الوقاية لنا ، وإيماننا المشترك بالله الواحد هو الذى يعصمنا من الهوان والذلة ، لأن الله وحده هو الذى نخاف ونرجو ، فلا طاقة لأحد بالسيطرة علينا ومعنا الله ! .

نحن — المسلمين والمسيحيين — فى الأمة العربية .

- نؤمن بوحدتنا أمة ...
- ونؤمن بوحدة ديننا مثلا ومبادئ للتعايش الإنسانى .
- ونؤمن بأنبيائنا رسلا لهداية البشر وتقدم الإنسانية ...
- ونؤمن بالله الواحد ونتقيه فى كل ما نأخذ وما ندع من أمورنا وأمور الناس ، ليكون المجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام والمحبة م ؟

كمال الدين حسين

تطور .. نبيل

بقلم الأستاذ أمين الخولى

إلى العقول القوية والقلوب الكبيرة
التي تدرك من التدين أسمى معانيه
وأنبل أغراضه .

منذ بضعة وعشرين عاماً أهديت بحثاً عن « صلة الإسلام بإصلاح المسيحية » إلى العقول القوية ، والقلوب الكبيرة ، التى تدرك من التدين أسمى معانيه .. إلخ ما يقرأ القارئ فى رأس هذا المقال .. وأردت أن ألفت بها أحرار الفكر ، أطهار القلب ، إلى أن هــذه الصلة بين الدينين ليست إلا أثراً لظاهرة اجتماعية ، فى حياة التدين البشرى . . . وأن البحث العلمى النزيه المحايد هو الذى انتهى إلى هذه الصلة بين الإسلام والمسيحية . . دون أى رغبة فى كسب فخر ، وأى محاولة فى إحراز فضل .

ولقد نقلنى إلى هذه الآفاق التى تبدو بعيدة مترامية الأطراف وأعاد إلى ذاكرتى إهداء كتب منذ نحو ربع قرن ، ومضى بى إلى ذرى الجلال والكمال وما لفت إليه القارئ من أمثال أولئك الرؤى .. فعل بنفسى كل هذا كتاب فرغت الساعة من قراءته.

هو كتاب « محمد . الرسالة والرسول » لمؤلفه الدكتور نظمى لوقا فإن الكتاب نفسه يحدث عن التطور الدينى ، ويعرض صوراً منه فى حياة الأديان الثلاثة الكبرى : اليهودية . . والمسيحية .. والإسلام ، وينتهى ذلك إلى : أن رسالة الإسلام جاءت مناسبة تطور البشرية الطبيعى .

على أن من الحق أن أصارح قارئى بأن جو التطور ليس هو وحده الذى حفزنى إلى الكتابة عما عنونت له هنا بالتطور النبيل ، بل إن شعوراً قوياً دفاعاً منبعثاً من الكتاب هو الذى أجبرنى أو كاد يجبرنى ، على أن أكتب عن هذا الكتاب ، وأبادر فأؤكد لقارئى أن الذى دفعنى أو أجبرنى على هذه الكتابة ليس هو شعور المتدين المتعصب الذى يرى فى الكتاب انتصاراً لدينه ، أو كسباً لنصير جديد من شخص يدافع عنه . . أو حجة تؤيده ، أو دليل ينهض فى وجه معارضيه .. كلا .. بل إن الذى دفعنى وأجبرنى إنما هو شعور يمضى فى عنفه ودفعه ، إلى أن ينقلنى إلى الطرف المقابل تمام التقابل لهذا التعصب والتحيز والحمية الجاهلية التى تغمر نفس ذى الأفق المحدود ، الغافل عن الوحدة الكبرى ، والغاية العليا للتدين الإنسانى فى كل زمان سحيق مضى أو بعيد يقبل . . وفى كل مكان ناء من الأرض مجهول ، أو قريب

منها معمور .. وتلك الطبيعة الإنسانية المترفعة فى الشعور هى التى ذكرتنى بالإهداء القديم : إلى الذين يدركون من التدين أسمى معانيه .. إلخ .. إذ تمثل لى فى قوة أن الدكتور نظمى لوقا هو أحد هؤلاء الذين هتفت بهم من وراء الغيب منذ بضعة وعشرين عاماً فى الأيام والأشهر التى عشت فيها أمس الصلة بين الإسلام والإصلاح المسيحى البروتستانتى . . فى نزوع علمى . . صدرت كلامى فى هذه الصلة بالحديث عنه والتفت إليه بكل نزاهته المحايدة ، ودقته الباحثة .. لقد تمثل لى الدكتور نظمى لوقا أحد هؤلاء المدركين المرجوين .. فإنه وهو القبطى الصليبة ، كما يقول عن نفسه ، يملك من أمر تلك النفس ما يستطيع معه أن يكتب عن محمد الرسول ورسالته ، فيقول من القول المترفع ما لا أجد بعضه أحق من بعض بالإشارة إليه ، أو بنقل فقرات منه للقارئ . . فكل كلمة فيه صالحة لهذا النقل ، مستحقة لهذه الإشارة .

إنه — فى بيان جلى — يشرح العوامل التطورية التى سيرت حياة الأديان الثلاثة ووجهتها إلى أهداف بعينها فى دعواتهم .. وبفهم تلك العوامل التى وضعت كل رسالة من هذه الرسالات فى مكانها من سائر أخواتها .. وينتهى ، على ضوء تلك العوامل المسيرة

للحياة والتاريخ إلى تقرير : أن الإسلام ختام الرسالات السماوية وقد استغنت به وعنده الدنيا عن توجيه آخر من السماء ..

وفى حب الحقيقة أكثر من حبه لأفلاطون — كما قال أول كتابه — وفى تمثل ، بل فى تقمص لروح «غاندى» الذى كان يصلى بصفحات من براهما ، وآيات من التوراة والإنجيل والقرآن . . يمضى فى شرح مقارن لأمهات الأسس الإسلامية فى إفاضة وصراحة ، ووضوح .. يصورهما استشهاده أول ما استشهد بالآية القرآنية « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا . أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » . فإذا كانت مناجاته الروحية لأبى القاسم وما يتراءى له من جوانب شخصيته الجليلة فذلك ما لا تطيقه النفس البشرية إلا بعد استشراف لدنيا غير دنيا سكان هذا الكوكب المخلد إلى أرضه ، المتهالك على أوهامه ، المتفانى فى سبيل تفاهاته .

يشعر قارئ كتاب « محمد الرسالة والرسول » أن باستطاعة البشرية الترفع المحلق عن وراثاتها ورواسبها الصلبة من أفعال آلاف الأجيال .. واستهواءاتها العتيقة . وضعفها المتهالك أمام هذا وأشباهه مما يثقلها ، ويحول دون كل استعلاء منها .. وهى

حال الكثرة الكاثرة ، بل حال الكل والجميع إلا قلة نادرة .. لا يكاد يكون لها حكم .. إننا جميعاً بكل ضعف بشريتنا لا ندرك من صلة الأديان المختلفة إلا العداوة والبغضاء .. والحقد والسخط على حطب جهنم المخالفين لنا .. وتلك هي الآفة التي صب بها أهل الأديان على الحياة في كل عصور التاريخ شواظاً من نار ، في محارق ومذابح .. ومعارك ، من المذهب النقي والعقيدة السليمة على الملاحدة الهراطقة المبتدعين .

إن شيئاً وراء ذلك كله في أعماق نفسي ، وطوايا روحي هو في الحق الذي أثار ذلك الشعور الدفاع الغلاب في نفسي عند قراءة ما وضعت من كتاب « محمد » للدكتور نظمي لوقا .. إنه حلم باهر قد تراءى للنفس حيناً مّا منذ سنين لا تقل عن العشرين . أذهبت نسمة من تلك النسمات الإنسانية المنعشة في دعوة ترددت أصداؤها من أقصى الغرب إلى أبعد الشرق تريد أن تستنفر أهل الأديان إلى أن يجعلوا أديانهم وسيلة من وسائل محاربة البغضاء والحقد بين الناس ، وقلة تعاونهم على تخليص دنياهم من آفاتها ، بما في عقائدهم من خيرية وروحية .

وإلى هذا الحلم الجميل الفاتن ، نبهت محاولة الدكتور نظمي لوقا ، في سبيل التسامي على أوهام البشرية وردت هذا الحلم القديم

ظلالا من الرحمة ، وخيوطاً من النور ، تتراءى غير ضعيفة فى أفق الأمل الإنسانى ، الذى لا يصرعه اليأس مهما تقس حوله الأحداث، وتتجسم الفرقات .

* * *

إن كتاب « محمد الرسالة والرسول » يرد إلى العقول القوية والقلوب الكبيرة الثقة فى بلوغ الحياة على هذه الكرة المظلمة إلى ما يسامت أملها فى بلوغ القمر ، والدوران مع الشمس ..

إن هذا الكتاب يقرؤه كل ذى عقل قوى ، وقلب كبير ، من أى دين وأى ملة . بل مع أى إنكار فيرى أن التدين تدير على أن يكون ترفعاً نبيلا ، بطهر النفوس ، ويحيى الآمال .. ومن أجل هذا رجوت فى ثقة أن يكون هذا الكتاب تطوراً نبيلا .. فى نظرة كل ذى دين إلى ما يرجى من خير للدنيا بالتدين .

أمين الخولى

تحية تقدير

بقلم الأستاذ فتحى رضوان

السيد / الدكتور نظمى لوقا

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته   وبعـــــد

فإنى أرجو أن تأذن لأحد مواطنيك ، فى الوطن العظيم مصر ، وفى الوطن الأكبر ، العالم وطن الجميع ، أن يكتب إليك عن غير سابق صلة أو تعارف .

فإن كتابك عن «محمد الرسالة والرسول» ، كان خير بديل عن صديق لكلينا ، يقدم كل منا لصاحبه ، شأن الكتاب الناجح أو الصادق دائماً ، فى عقد الصلة بين الكاتب وقرائه .

كما أرجو ألا يتبادر إلى ذهنك ، أن كتابك حفزنى على تحرير هذا الخطاب لأنك أدرت الحديث فيه عن محمد ، نبي المسلمين وأنا مسلم ، وأنت من المسيحيين ، فتأليف الكتب عن الإسلام ، من مسيحيين سبقك إليه كتّاب كبار من مسيحيي أوربا وأمريكا ولم يروا فى ذلك حرجا وإن كان فضلك أكبر من فضلهم

جميعاً إذ أن ما تذرعت به من شجاعة للإقدام على هـذا العمل الأدبي ، أكثر مما احتاجوا إليه بكثير . فاختلاف الظروف والبيئات والملابسات يجعل من عملك شيئاً أقرب إلى المغامرة والمجازفة بالصلات والصداقات والمصالح . لذلك فإني أكتب هذا لأعلن إليك ، أن الطابع الإنساني فى كتابك قد مس شغاف قلبي أكثر من أى شيء آخر فيه على جماله كله . فقد جرى بأسلوب من يحب الناس ويحب الخير لهم ، ويحب الأخيار فيهم ، ويحب لهم أن يعيشوا متآخين ، صافية نفوسهم ، مشرقة بالود والتسامح قلوبهم .

ودمت لأخيك المخلص ؟

فتحي رضوان


مُحَمَّد
الرِّسَالَة وَالرَّسُول

„ وإن من أهل الكتاب لمن
يؤمن بالله وما أنزل اليكم
وما أنزل اليهم خاشعين لله
لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا. أولئك
لهم أجرهم عند ربهم ٠ "

صدق الله العظيم
(آل عمران)

" افلاطون حبيب الى نفسي،
بيد أن الحقيقة أحب
الى نفسي من افلاطون ! "

أرسطو

الإهداء

الى السائرين فى الظلمة والى من
يلوح لهم - من أنفسهم ! - فجر
جديد ...

وأيضاً الى

الروح العظيم : مهاتما غاندى

الذى كان يصلى بصفحات من براهما ،
وآيات من التوراة ، والانجيل ، والقرآن
ومات بيد هندوسى متعصب ،
شهيد دفاعه الصادق المجيد عن
حرية العبادة لأتباع محمد ..

ظمى لوقا

مقدمة

من يغلق عينيه دون النور يضير عينيه ولا يضير النور .

ومن يغلق عقله وضميره دون الحق ، يضير عقله وضميره ولا يضير الحق .

فالنور منفعة للرائي لا للمصباح ، والحق منفعة وإحسان إلى المهتدى به لا إلى الهادى إليه .

وما من آفة تهدر العقول البشرية كما يهدرها التعصب الذميم الذى يفرض على أذهان أصحابه وسرائرهم ما هو أسوأ من العمى لذى البصر . ومن الصمم لذى السمع . لأن الأعمى قد يبقى بعد فقد البصر إنسانا ، والأصم قد يبقى بعد فقد السمع إنسانا . . . أما من اختلت موازين عقله أو موازين وجدانه ، حتى ما يميز الخبيث من الطيب ، فذلك ليس بإنسان ، بالمعنى المقصود من كلمة إنسان .

وبهدى من هذا النهج وجدت من واجبى أن أكتب هذه الصفحات ، موقنا أن الإنصاف حلية يكرم بها المنصف نفسه قبل أن يكرم بها من ينصفهم . .

وليس الإنصاف مزية لصاحبه إلا حينما يغالب الحوائل ، كالعقائد الموروثة ، والتقاليد السائدة . . . أما حين يوافقها فما أهون الإنصاف ، « ولولا المشقة ساد الناس كلهم » كما يقول أبو الطيب . وأوشك أن أقول على غراره « لولا العصبية أنصف الناس كلهم » .

فما أحوجنا فى هذا العالم المضطرب الذى تقسمت فيه الناس معسكرات متقاتلة متلاحية من المذاهب والعقائد التى صبغت كل منحى من أنحاء الحياة أن نسعى للقضاء على آفة العصبية ، ونتعود الإنصاف . إنصاف الخصم وكأنه صديق ، فالمنصف إنما يعنو للحق ، ويعنو لنوره فى العقل ، فيشهد لنفسه بالفضل وحسن الرأى حين يؤدى لذى الحق حقه مهما اشتجر الخلاف أو لجّ الخصام . .

وما أرى شريعة أدعى للإنصاف ، ولا شريعة أنفى للإجحاف والعصبية من شريعة تقول :

« وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا » !

فأى إنسان بعد هذا يكرم نفسه وهو يدينها بمبدأ دون هذا المبدأ ، أو يأخذها بديدن أقل منه تساميا واستقامة . . . ؟

أجل ! نعدل ولا نجور ! فذلك حق أنفسنا علينا ، وحق

عقولنا علينا ، وحق ضمائرنا علينا ، قبل أن يكون حق هذا من الناس أو ذاك . . .

وما أرى الشانئ يضير خصمه حين يجور فى الحكم عليه ، إلا كما يفقأ امرؤ عين نفسه كيلا يرى من يسوؤه مرآه . . .

ولست أحب ذلك لأحد ، بل إنى أرى مستقبل هذه البشرية منوطاً باحترام العقل وتقصى العدل وإنصاف الخصم ، حتى يرتد بنو حواء إخوة يختلفون فى مودة ، ويتباعدون إلى تقارب ، ويفيئون فى نهاية كل مطاف إلى نور الله الذى كرمهم به ، وهو الحق والعدل . .

وإنى لأسأل من يستكثر الإنصاف على رسول أتى بغير دينه ، أما يستكثر على نفسه أن يظلمها إذ يحملها على الجحود والجور ؟ . .

ولست أنكر أن بواعث كثيرة فى صباى قربت بينى وبين هذا الرسول ، وليس فى نيتى أن أنكر هذا الحب أو أتنكر له ، بل إنى لأشرف به وأحمد له بوادره وعقباه . .

ولعل هذا الحب هو الذى يسر لى شيئاً من التفهم ، وزين لى من شخص هذا الرسول الكريم تلك الصفات المثمرة ، وجعلنى أمرض بوجدانى عن تلك النظرة الجائرة أو المتجنية التى نظر بها

كثيرون من المستشرقين وغيرهم إلى الرسول العربى ، ولكنى حين أحتكم إلى العقل ، أرى الخير كل الخير فيما جنحت إليه ،

فالخير من يشوه المشوهون كل جميل وكريم من مفاخر البشرية المثخنة بالقروح والخزيات ؟

والخير من يثلب الثالبون كل مجيد من هداة هذا الجنس الفقير إلى المجد ، المثقل بالخساسة والحقد ؟

ألا إن كل محب للبشر ينبغى أن يكون شماره دواما :

— مزيداً من النور ! ومزيداً من العظمة ! ومزيداً من الجمال ! ومزيداً من البطولة والقدوة !

وبدافع من حب البشرية أقدمت على تسطير هذه الصفحات ، وسيّان بعد هذا أن يقول عنها القائلون : إنها شهادة حق ، أو رسالة حب ، أو تحية توقير وتبجيل ، فما كان كآحاد الناس فى خلاله ومزاياه ، وهو الذى اجتمعت له آلاء الرسل ، وهمة البطل ، فكان حقاً على المنصف أن يكرم فيه المثل ، ويحيي فيه الرجل ..

١٠ ش ابن سينا
مصر الجديدة
١٩٤٨ — ١٩٥٩

الدكتور نظمي لوقا

صبيّ في المسجد . . .

صبي قصير ، نحيل ، عصبي الملامح ، واسع العينين ، تطل منهما نظرة تطلع ، وفى ثيابه إهمال ، وفى يديه آثار حبر ، ورباط حذائه مرسل يكاد يتعثر به وهو يمشى ، وسنه لم تتجاوز السادسة إلا قليلا . يقطع الطريق جادًّا مسرعاً بعد صلاة العصر بقليل إلى مسجد فى السويس ، قريب من مبنى المحافظة بها ، لا يلوى على شىء .

ويتمهل الفتى عند دكان الحلاق الذى يواجه المسجد ، ليرى الشيخ جالساً ، بقامته المفرطة فى القصر ، وجبهته المفرطة فى العلو ، وبشرته البيضاء المحمرة ، وثيابه النظيفة الناصعة ، ولحيته الصهباء التى يخالطها بياض كثير .

ويقرئ الفتى أستاذه الشيخ السلام ، ويهش الشيخ للقائه ، ويده تداعب ساعة جيبه الكبيرة المصنوعة من المعدن ، يفتحها ، ثم يتحسس عقاربها ، ويغلقها ثم يعيدها إلى جيب قفطانه الأبيض . . وترتسم على وجهه ظلال ابتسامة ، يكاد الفتى يراها

فى موضع عينى الشيخ ، لولا أن هاتين العينين أغلقهما مرض فى الطفولة الباكرة إغلاقا أبديا .

ويقبض على قلب الفتى قابض ، لم تذهب به الألفة المعادة كل يوم . . وينظر بحسرة إلى صفحة السماء الصافية ، ويقشعر بدنه ويتنهد .

ما أنكد هذه الآفة . . إنه ليؤثر الموت على هذا الحرمان الوجيع ، من ومضات النور ، وهمسات ظلاله . . وهى تبدى أتفه وأشوه المرئيات . . حتى هذه البقية من الروث التى تركها حصان كان يجر عربة عابرة . . فكل شىء عزيز على العين ، حتى ولو لم يكن جميلا مرغوبا . . لأنه يبدى لها نورها .

ويتأبط الشيخ الكفيف ذراع الصبى . وإنه ليضارعه طولا أو قصرا ثم يدب بعصاه عبر الشارع . . والصبى لا يخطىء نظرات الفضول من الحلاق ، وزبائنه ، وعابرى السبيل . إلى أن يدخل الشيخ وتلميذه من باب المسجد ، ليبدآ درسهما اليومى من بعد صلاة العصر ، إلى صلاة العشاء .

فى مدينة السويس الصغيرة ، سنة ١٩٢٦ ، لم يكن أحد من أهليها يجهل من الشيخ سيد البخارى ، إمام مسجدها ، وعالمها وفقيهها . يجلونه ويرهبونه . فإن له لعلما ورأيا . وإن فيه

لشجاعة فى الحق ، وذرابة فى المنطق ، وأنفة تدخله لديهم مدخل الكبر الذى لا يغتفر لمن كانت به كالشيخ خصاصة شديدة ، يداريها بتجمل أشد .

ولم يكن أحد من أهليها يجهل كذلك من الصبي الصغير ، ابن ذلك الموظف النازح إلى السويس ، فيه وسامة وأناقة ، وفى لسانه عذوبة وذلاقة . . وإنهم ليعرفونه رجلا قبطيًّا صليبة . . يؤم الكنيسة يوم الأحد .

وفى مدينة كالسويس يتساءل الناس عن النازحين إليها والغرباء من الطارئين . وهم يعرفون أن لهذا الموظف والد الصبي أرومة معرقة فى صناعة القسوس . فكم له من جد من ذوى الطيالس السود والعمائم السود . . فلا شك إذن فى قبطية هذا الصبي الذى يرونه كل يوم يؤم مسجدهم الحنيف مع الإمام العالم الشيخ . . وأن الحيرة لتستبد بهم ، ثم تأخذهم نافلة من الغيرة ، يتهامسون بها فيما بينهم ويتناجون . ومن أمَّ منهم المسجد لصلاة المغرب ، رأى الشيخ ينفض يده من درس الفتى فى مؤخرة المسجد ، ويتقدم فيؤم المصلين ، ثم يعود ليصل من الدرس ما انقطع . والفتى ينظر إليهم مصلين ، ويسمع لما يتلى فى الصلاة ، وفى عينيه ذلك التطلع القلق فمنهم من يزورّ عنه ، ومن يحملق فيه بفضول .

وخرج بعضهم من النجوى إلى العلن ، فجاهر الشيخ بما فى نفسه ، وراجعه فيما يفعل . فإن كان حباً للتدريس ففيم رفض التدريس لابن فلان وفلان من الوجوه على ما بذلوا له من مال وفير ؟ . وإن كان حباً للمال ، ففيم خطبه التي يحارب بها التقرب للأولياء ، وتقديم النذور ، ورفعه صندوق النذور من مسجده ، وقد كانت له من ذلك حصيلة طيبة إن شاء ؟ .

ويغضبها الشيخ غضبة لله وبيوته ، ولسماحة دينه ، ويبدى من ذلك مايفحم سامعه . ولكن السامع ينهض غير قانع مما سمع ، لأن حجة العقل لا تقنع القلب . والقلوب التى لا يعمرها نور الحب ، لاتستجيب إلا للأثرة ، والأثرة تتغذى بالعداء لابالولاء .

ويضمر الشيخ فى نفسه أمرا ، فإذا كان الغد أرسل إلى ذلك المعترض أن يوافيه بعد صلاة العصر لأمر . ويحضر الرجل وقد عقد مجلس الدرس بجوار عمود المسجد ويستمهله الشيخ قليلا ريثما يفرغ له . ويتابع الدرس . وكان موضوعه تفسير سورة الضحى . ويتلو الصبى السورة بلسان قويم ، وإيقاع سليم . ويختمها بـ«صدق الله العظيم » . ثم يشرع فى تبيين معانيها ، مستشهداً بسيرة الرسول الكريم . والشيخ يناقشه حينا ، ويوجهه حيناً آخر ، ويستوضحه حيناً ثالثاً . . حتى إذا بلغ الموضوع غايته . . وجه الشيخ الكلام إلى صاحبه الزائر قائلا :

— كيف بنوك يا فلان ؟

— بخير يامولانا .. يقبلون الأيدى ..

— تعرفنى يافلان أمقت تقبيل الأيدى وأخذل عنه الناس .. أعرفت فيم أرسلت إليك ؟ ..

فأطرق الرجل وقال :

— عرفت يامولانا .

— انصرف راشدا ..

ونهض الرجل محييا . وتحرى أن يصافح الصبى الصغير فى مودة سابغة أشبه شىء بالاعتذار ..

ورآه الفتى بعد ذلك اليوم — وكان ساعاتيا له دكان قريب من المسجد — يستقبله بالتحية التى يلقى بها الشيخ ، كلما مر به قادما أو منصرفا .. ويكاد يلمس فى صوته وإيمائه هزة الخشوع .

***

وكان والد الفتى — أكرم الله مثواه — شديد الولوع بالفصاحة والفصحاء . اتفق له شىء من قرض الشعر فى صدر شبابه . وآمن أن ولده البكر ينبغى أن يصيب من ينابيع الضاد وبلاغتها أكبر حظ مستطاع . ورأى هزال ما يتاح لطلاب

المدارس من ذلك كله فعهد بولده إلى ذلك الشيخ الذى التقى به فى دكان الحلاق فبهرته منه شخصية مشرقة، وذهن رحب، وسماحة ما كان يتوقعها فى أحد الأشياخ فقد سمعه يستشهد أمامه بآيات من الإنجيل وهو فى حديثه الدارج مع الناس من حوله لايحيد عن الفصيح من اللفظ والجزل من التراكيب فكأنما خرج الشيخ لتوه من سوق عكاظ! وهم الشيخ أن يعتذر بزهده فى التدريس، لولا أن الوالد ذكر له أنه أقرأ ولده كليلة ودمنة قبل أن تسمح سنه بدخول الدراسة الابتدائية. وأن الفتى — وهو أصغر طلاب مدرسته وأقصرهم قامة — وجد نفسه فى مؤخرة صفوف الفصل فى أول يوم. فرفع يده وقال للمعلم — وكان معمما — بلغة فصيحة:

— أريد أن أجلس بجوار السبورة!..

فضج التلاميذ بالضحك، وقال المعلم ضاحكا.

— لك ذلك أيها الفيلسوف العجز!.

فذهبت مثلا! وصارت هذه كنيته بين أترابه وأساتذته، لأنه يأبى أن يحدث المعلمين إلا باللغة الفصحى..

— واشتهى أن يقوِّم لسانه بالقرآن، وتهذب نفسه بالمعلقات وعيون الشعر..

فأخذت الشيخ هزة وقال :

— أما وأنت لاتريدنى على تدريس تلك المناهج السقيمة والخوض إلى تلك المدارك الضحلة فهذا مطلب تطيب به نفسى وينشرح له فؤادى .

— والأجر ؟..

— أمره لك .. وأكبر جزائى أن تزهر للعربية شجرة مثمرة فى قلب فتى أريب ، فى زمن أوشك اللسان العربى القويم فيه أن يعز وجوده كالكبريت الأحمر ! . .

ووجد الفتى فى أستاذه المكفوف خزانة أدب وعلم وفقه وفلسفة .. وخُلق ! . .

كان الشيخ يحفظ أشهر دواوين العرب وعيون الخطب . . وكان التعليم بالضرورة شفوياً . ولا بد فيه من ضبط مخارج الحروف وإقامة النحو ، وتجنب اللحن ، وتوخى الجزالة ، فتعلم الفتى أن يتكلم وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح .

وبدأ الفتى يحفظ القرآن . ويقف عند كل آية ، ويملى عليه الشيخ موجزاً لتفسيرها ثم يملى عليه مايتطرق إليه ذهنه الخصب بصددها من الأمثال السائرة والشعر المشهور . فتعلم الفتى كيف يربط المعنى اللغوى بالصورة الجمالية والذوق الأدبى .

وخرج الفتى مبرزاً فى امتحان نصف السنة وأتى شيخه فرحاً مرحاً . فجعل الشيخ موضوع درسه ذلك اليوم بيتا من الشعر الحكيم ، ثم آية من القرآن الكريم . أما البيت فهو :

وإذا كانت النفوس كبارا   تعبت فى مرادها الأجسام

وأما الآية فهى : « وَلاَ تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحاً ، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً ! »

وكان على الفتى أن يعالج الموضوعين بلسانه ، والشيخ يستدرجه ويحاوره على سنة سيدنا «سقراط» عفا الله عنه . . إلى أن وصل إلى غايته من تصغير الغرور إليه .

وأتاه بعد ذلك بأيام حزينا مغيظاً . فقد دعاه أستاذه إلى السنة النهائية وطلب إليه أن يصحح — وهو التلميذ بالسنة الأولى — خطأ طالب طرَّ شاربه وأوتى بسطة فى الجسم ، بعد أن عجز كل تلاميذ الفرقة النهائية عن ذلك التصويب ، فأجاب بداهة ، وأمر الأستاذ التلاميذ جميعاً أن ينهضوا له واقفين ويحيوه تحية التعظيم ففعلوا صاغرين . . حتى إذا انقضى اليوم المدرسى ، تربصوا له بالباب وأحاطوا به وخطفوا طربوشه وجعلوا يتناقلونه بالأرجل وصبوا على الصغير سخريتهم وآذوه باللفظ واليد ، حتى تمزقت ملابسه واحمر قفاه . ولولا أنفته الشديدة لفاضت عيناه .

وعض الشيخ على نواجذه ثم قال :

— الموضوع الذى سنجعله مدار حديثنا اليوم هو : « آية الفضل أن تعادى وتحسد » و :

كل العداوات قد ترجى إزالتها   إلا عداوة من عاداك عن حسد

وتشعب الحديث وتطرق إلى فنون من الفكر والشعر، حتى إذا انتهيا إلى قول أبى الطيب :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص   فهى الشهادة لى بأنى كامل

استشعر الفتى العزة بعد الذل ، والكرامة بعد الهوان . ولما آنس منه شيخه أن جرح كرامته قد التأم ، انتقل إلى جرح من نوع آخر : إلى جرح أحدثه الحقد ، ونزعة فطرية إلى الثأر ، فقال للفتى :

— أريد أن نعد لمجلس الغد قول أبى الطيب:

وأتعب من ناداك من لا تجيبه   وأغيظ من عاداك من لا تشاكل

وأيضاً قول المسيح عليه السلام : أبت اغفر لهم فإنهم لايدرون مايفعلون !

أمن عجب بعد هذا أن يكون الشيخ ملاذ الفتى فى كل ملمة ، ونبراسه فى كل مدلهمة ، وقدوته التى يأتم بها عقلا وقلباً وعاطفة وضميراً ؟ . . .

لقد أصبح الشيخ القزم عملاقاً ، وسكن إليه الفتى واطمأن ، وأخذ نفسه بأدبه وفضله . أمره الأمر ، ورأيه الرأى ..

وذات يوم أتى غلام صغير إلى المسجد يلتمس الشيخ ، فعرف فيه الفتى خادم أستاذه . فقال له :

— « الولد » حضر يامولانا .. الولد خادمك .

فأشاح بعنقه كعادته حين يضيق بشيء سمعه . وأدنى الغلام وتسارًا برهة ثم انصرف الغلام . وعندئذ قال الشيخ :

— ماهكذا يكون أدب السادة أيها السيد ! كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فتاى وفتاتى ولا يقول عبدى وأمتى . .

وانطلق يوبخه بما كان للرسول وصحابته من أدب رفيع فى معاملة خدمهم . ثم قال له فى حزم :

— أرجو أن تفكر حتى غد ، وعندما تخلو إلى نفسك فى المخدع ، ماذا لو كنت مكان أحد ممن تسميهم خدماً ؟ فإنه مثلنا ابن أب وأم . والدهر الذى جار عليه جار على سائرنا .

وأحب أن تفكر فى قول الشاعر :

إذا ما الدهر جر على أناس كلاكله أناخ بآخرينـــا

وأرق الفتى ليلته وقد تصور أباه هلك كما يهلك كل حى ، وتصور نفسه يتلقى الركل والسباب والإهانة خادماً فى بيت كبيته

هذا . وطار قلبه شعاعاً . وما استيقظ حتى تعمد أن يكون بالخادم في بيته رفيقاً رقيقا . ولما رأى أمه تسبه وهي تستعجله قضاء حاجة ثار بها ، وأسمعها طرفاً مما وعاه من آداب الرسول وصحابته في هذا السبيل . فاحتقن وجهها وأتت أباه فأخبرته . ووعدها أن يكون له مع الشيخ حديث في ذلك النهار .

ولما حل العصر ، قيل للفتى : إنه لادرس اليوم ، وذهب الوالد فلقي الشيخ وقال له : إن بالفتى وعكة . ثم تطرق الكلام إلى بيت القصيد . وأدرك الشيخ مراد الرجل ، فقال محتداً :

— هل ترضى مني أن آخذ ولدك بغير الأدب الأكمل والنهج الأقوم وأن أعرف الحق وأحيد به عنه ؟

— بل لا أريد . .

— وإن أردت أنت فإني أريد ! لأن ذلك هو الغش البيّن . فهل تراك أخذت على الدهر ميثاقا وقد عجز عن ذلك الملوك والسلاطين وأصحاب الملايين من قبلك ؟

— ولكن الله يا مولانا رفع الناس بعضهم فوق بعض درجات . .

— ويداول الدنيا بين الناس ! ثم أما قرأت كتابك ؟ ألم تجد فيه أن المسيح عليه السلام — ورأيكم فيه ما تعلم ! — غسل

أقدام حوارييه ؟ آداب الرسل ليس فيها تفاوت . وإنما التفاوت عندنا حين نفرط فى لباب الدين لنتملق بزخارف الدنيا .

وأعاد الرجل على زوجه حديث الشيخ ، وآذنها أن الفتى مستأنف درسه منذ الغد : فما كان ليحبسه عن رزق من الحكمة الرفيعة أتاحه له الله فى صورة هذا الشيخ .

— وإنى يا فلانة لأستحى — والله — أن يظن الشيخ بنا دون هذه الآداب .

* * *

وكأنما همس الهامسون فى آذان الأبوين كما همس هامسون من قبل فى أذن الشيخ . . ولعل غيوراً من أهل الحذلقة قال لهما :

— كيف تخاطران بالفتى هذه المخاطرة ؟ فإنه يخشى أن يفتنه الشيخ عن دين آبائه .

ووجد الفتى أبويه يقرآن له فصولا من الإنجيل كل يوم . ويرسلانه إلى الكنيسة يوم الجمعة . وجعلت أسرار العقيدة تصب فى دماغه صباً . فاستعصى منها على ذهنه ما استعصى وناقش فقيل له : إن الإمعان فى التفكير يسوق إلى الكفر ، وأن المناقشة سبيل الشك . ومن دخل الشك قلبه فارقته نعمة الإيمان ، وبغير نعمة الإيمان يهلك المرء ولا يدخل ملكوت السماء .

والتمس الفتى عند شيخه الهداية ، فتحرج الشيخ أن يطرق الموضوع ، بيد أنه حدثه عن العقل . وأنه الإمام الذى أنعم الله به عليه . وأن الدين المتين يقوى بالتفكير والتعقل . وأن اليقين الذى لا يصمد للشك يقين زائف . والمطمئن إليه مخدوع كمن يشيد بيته على الرمال . . وحدثه الشيخ فى ذلك اليوم عن رجل سمع به حينئذ لأول مرة ، وكان لاسمه ونهجه أثر حاسم فى حياته من بعد . حدثه عن « غاندى » . وكيف يصلى بآى من القرآن والإنجيل والتوراة والبرهمابوترا . وحدثه عن متصوفة الإسلام ، وعن محيي الدين بن عربى . . وكيف أن لباب الدين كله واحد عند من ينفذون إلى الجوهر وينبذون القشور .

— اقرأ يابنى كتابك بنفسك . واحتكم إلى عقلك ، واعلم أن كل دين ينهى عن قالة السوء ، وعن فعل السوء ، وعن تفكير السوء

وسمع الفتى بعد ذلك واعظا مشهوراً حضر إلى المدينة واحتشد القبط لسماعه احتشاداً مشهوداً ، فإذا بعظاته كلها تنديد بطائفة البروتستنت ، سماهم الذئاب الخاطفة ، وحض على اختصامهم . فلا يحل لقبطى أن يصافح منهم أحداً أو يرد عليه السلام ! . .

وصورت المخيلة الناشطة له أولئك الناس ذوى أنياب

كاشرة ، ومخالب كاسرة . وذهب إلى شيخه بذلك الحديث فزعا . فاغتم الشيخ وقال :

— أواثق أنت مما سمعت يابنيّ ؟ .

— كل الثقة يامولانا ..

— أعوذ بالله ! إن مسيح هذا الواعظ ليس مسيح الناصرة ولامراء ! .. فالمسيح الناصرى يقول : أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم ! .. كبرت كلمة تخرج من أفواههم ! إقرأ إنجيلك يابنى وافتح له بصيرتك .. واصدد عن مفسرى السوء ما استطعت .

ووعى الفتى درس شيخه ، فتزوج بعد عقد ونصف إحدى بنات « الذئاب الخاطفة » المزعومين !

* * *

وحفظ الفتى القرآن لتسع ، ووعى المقامات وديوان الحماسة . وقرأ اللزوميات . وافتتن بأبى العلاء والمتنبى على وجه الخصوص وأصبح وسيرة الرسول والخلفاء الراشدين آلف لديه من عشرائه . يكاد يقدس ابن الخطاب وابن أبى طالب . والشيخ من وراء ذلك كله أعز عليه من أهل الدنيا جميعاً .

أتاه ذات يوم باكيا ، فسأله مابه :

— سعد يا مولانا .

— رحمة الله على الزعيم الجليل ! ماذا ذكّرك به ؟ ..

— ليس سعدا هذا .. بل الآخر ..

— ومن ذاك يرحمك الله ؟

— هو كبش كنا نربيه في البيت .. غافلوني وذبحوه للعيد! .
ولما بكيت سخروا مني .. ولم يكفهم أن يأكلوا منه .

فأرادوني — وألحوا — أن آكل منه مثلهم .. فأبيت ! ..

ولم يضحك الشيخ بل رق للفتى رقة واضحة .

— ولماذا يسخرون منك ؟ لقد بكيت من أحببت ! ..

— أليس كذلك ؟ .. وقالوا حرام ألا تأكل مما أحل الله .

— ليس حراماً أن تحب شيئا خلقه الله .

— وقالوا أتحب خروفا كأنه أخوك ؟

— الحب يابنيّ شيء جميل جليل .. ولو كان لشيء تافه ضئيل : ألا يحب الواحد منهم أصصا من الزهر ؟ .. أو حلية من الجوهر ؟ . لا تثريب عليك فيما أحببت ! . فليست قيمة الحب فيما نحبه ، بل في حبنا له .. وإن لك لقلبا سخياً وفؤادا ذكيا

وأصبح الشيخ أقرب إلى الفتى من آله وذويه ، بهذا الفهم ، وهذا الحس .

* * *

وأصيب شقيق للفتى فى مهده بمرض طويل ، أكل علاجه الأخضر واليابس ، ثم مات فركب الأسرة دين وسافرت أم الفتى ـ وهى حامل فى شهرها الثامن ـ إلى القاهرة تطلب من أمها الثرية حفيدة القسوس جزءاً من حقها القانونى فى وقف جدتها . وكانت أم الفتى وحيدة أمها . ولبثت الأم فى سفرها ثلاثة أيام أحس الفتى فيها بالوحشة . ثم عادت الأم من سفرها خاوية الوفاض ، دامعة العين . وقد أبت عليها أمها الثرية حقها ، وهى بين الثكل والحمل والحاجة مهيضة الجناح مضعضعة النفس .

وقررت الأسرة أن تضغط المصروفات كلها لمواجهة الأزمة . فانتقلت إلى بيت أرخص أجرا وقطعت تيار الكهرباء واستغنت عن الخادم والغاسلة . وأقبلت الأم الحبلى تعمل بيديها كل شىء . حتى الخبز ! .. فحزّ ذلك فى نفس الفتى الذى يكاد يعبد أمه من دون الله . .

وتقرر فيما تقرر الاستغناء عن الدرس . وكان الشيخ قد عرف طرفا من ذلك الحديث من الفتى الذى لم يكن يطوى عنه

أشجانه . فإذا به يسكت عندما فاتحه أبو الفتى فى انقطاع ابنه . وينصرف الأب إلى داره ، وإذا بالباب يطرق بعد قليل . وإذا بالشيخ الضرير يقوده صبي الحلاق . ويبادر الوالد قائلا :

— ما أظنك تأبى أن أكون أنا ضيفك كل يوم ساعة أو نحوها .

وعرف الفتى أن الشيخ عازم أن يستمر الدرس ، بغير مقابل ، وأن تلطفه شاء له أن يكون هو الساعى إلى تلميذه صونا لعزته وزيادة فى مروءته .

ولم يسع الفتى إلا أن يقارن فى نفسه بين فعل جدة تنتمى للمسيح وتتشدق باسمه . وبين فعل شيخ يصلى بالناس على محمد وآله خمس مرات فى كل يوم ! ..

ليس البر وقفاً إذن على دين دون دين .

* * *

وفى العاشرة رحل الفتى عن السويس ، ولم ير الشيخ بعدها ولكن الشيخ ظل قائماً فى عقله ونفسه ولسانه .. فقد صاغ الشيخ فى الفتى ذلك كله ، وفتح عينيه على احتقار الجاه واحترام العقل وتقديس العقل وشجاعة الرأى ..

الآية الكبرى

وقرأ الفتى كتبه . وأعاد قراءتها فى الحين بعد الحين ، فقد كانت وثيقة الصلة بأزمة وجدانه وعقله وهو يقلبهما بين السماء والأرض . لا تسكن نفسه من شك ، ولا يسكن عقله من تطلع . . وأعيا عقله أن يجد تفاوتا فى نسق الكتب الموحى بها وسياقها . فهى — بلا استثناء — تنتهى إلى ضرورة الإيمان الذى ينبع من القلب ويفرض أضواءه على كل معتقد بدين .

وهنا وقف الفتى الذى درج إلى الشباب وقفة لم يكن منها مناص : إن تكن هذه الأديان صحيحة ، فبأى حجة وبأى مقياس يمكن الطعن فى صدق رسالة محمد ؟

ما من نبى حمل إلينا توكيلا موثقا بأنه ينطق بلسان الوحى . وإنما كانت آيته صدق ما أتانا به . . وأما المعجزات فلا حجية لها إلا لمن شهد شهود العيان . وبيننا وبين ذلك أجيال وأجيال . فتبقى بعد هذه الآيات المثيرة الآية الكبرى التى لا يثبت بغيرها صدق ، ولا يغنى عن غيابها ألف دليل مغاير ، مهما بلغت درجته من الإعجاز . وهذه الآية الكبرى هى صدق الكلمة من حيث

هى . فإن الحقيقة آية نفسها، تحمل برهانها فى مضمونها، فيطمئن إليها العقل ويبدو ما يباينها هزيلا واضح البطلان .

إن موقف الناس من الوحى واحد أيًّا كانت الرسالة الموحى بها والرسول المخبر عنها : لم يطلب أحد من رسول قبل محمد برهانا عيانيا على وحيه كى يطالب به محمد . فمن اعترف بوحى السماء إلى رسول من البشر ، لزمته الحجة ألا ينكر نزول الوحى على محمد من حيث المبدأ . فوجه الامتناع هنا غير قائم بمبرر نزيه .

ولا يتبقى بعد سقوط الاعتراض على الوحى من حيث المبدأ ، إلا النظر فى مضمون ذلك الوحى . فإن كان هذا المضمون حاويا آية صدقه فى ذاته . وليس فيه ما ينقض طمأنينة العقل أو يريبها ، فلا مفر من الإقرار بصدقه .

ومن هنا وجب النظر النزيه فى رسالة محمد ، والبحث فى مضمونها ، لنلتمس فيها آيات الصدق التى يصدق الناس بمثلها من سبقه من المرسلين ، ولنرى هل فيها مايدعو للريب ، ويبرر دمغها بالزيف أو الدجل أو البطلان .

ذلك هو الحد القوام الذى لا افتئات فيه على إنصاف ، ولا ينبغى أن يحيد عنه من له فى النزاهة مطمع .

إن السلمة الأصلية هى التى تؤدى للناس مالا تؤديه سلمة

أخرى وإن كانت تشبهها فى بعض الوجوه . وليست تقليدا أو تزييفاً لسلعة سابقة عليها . . بحيث يكون غيابها نقصا واضحا لا محل فيه للإنكار .

عرف الناس السفينة ذات المجداف ، وعرفوا السفينة ذات الشراع . ثم عرفوا السفينة التى تسير بالبخار . وكلها سفن ، ولكن الخلاف بينها واضح فيما تؤديه للناس من خدمات .

كذلك العقائد والأديان . كلها عقائد غيبية . تحدد صلة الإنسان برب هذا الكون . ولكنها تتباين بوجه من الوجوه .. وهذا تعليل توالى الديانات والرسالات السماوية مع أطوار البشر ومستويات إدراكهم ووعيهم العمرانى .

لزم إذن أن يكون لكل ديانة طابعها المميز الخاص بها . وأن يكون هذا الطابع المميز هو « سبب وجودها » أو موضوع وجودها .

فهل للإسلام هذا السبب ؟ وهذا الموضوع ؟

وبعبارة أخرى . أن الوظيفة تخلق العضو . والحاجة تخلق السلعة . فإن تحدد بعد الأديان السماوية السابقة للإسلام موضوع معين أو دور معين لعقيدة سماوية تحددها احتياجات التطور البشرى ، ثبت أن ظهور ديانة جديدة لم يكن تعسفاً أو فضولا أو اصطناعا لجأ إليه مغامر أفاق ..

ثم يلزم النظر فى الإسلام . وهل جاء مؤدياً لتلك المهمة والرسالة ؟ فإن صح ذلك ، كان عقيدة صحيحة جاءت فى ميقاتها الطبيعى لتقويم بدورها أو وظيفتها المهيأة لها بأطوار العمران البشرى إن كل من آمن بالأديان ورسالتها . وبالعقائد ووظائفها ، لا بد له من اتخاذ هذا القياس الوضوعى الذى يعدل فى النظر إلى العقائد بعامة وإلا كان محض وارث لعقيدته متعصب لها عصبية عمياء .

وما على المنكر إلا أن يبين لنا مقياساً آخر نعرف به وظائف العقائد ويفسر لنا تواترها وتعاقبها على مرور الأجيال قبل دعوة محمد .

إن قال بالوحى هنالك ، فما هو دليلك على صدق وحى من قبل محمد ، بحيث يفتقر وحى محمد إلى ذلك الدليل ؟

لم ير أحد ملك الوحى هابطا على من قبل محمد ، حتى نطالب بظهور جبريل وهو يهبط بالوحى عليه .

وإن قال : إن الديانات تعاقبت بغير علة لهذا التعاقب من مضمون الرسالة ومؤداها ، فقد نفى الحكمة من التعاقب ، بل نفى الحكمة من الدين عامة . فإن الشرائع التى تتكرر بغير تعديل قول معاد ، فى غير حاجة إلى إعادة .

فإذا تذكرنا أن البشر يتطورون ويتقدمون فى وعيهم العمرانى ، كانت الإعادة المكررة تقصيراً . فلا يبقى إلا أن الشرائع السماوية تساير البشر فى تطورهم ، كما أن غذاء الإنسان يساير المرء فى تدرجه من الرضاع إلى الطفولة واليفاع والكهولة .

وهذا يردنا إلى تمايز الرسالات الدينية ، وتفرد كل منها بخصوصية هى موضوع وجودها أو هى وظيفتها .

ولا يبقى بعد ذلك جاحد لهذا الموقف إلا من يقول : هذا رأيى وكفى ! .. ومثله لا يعول له على رأى ، لأنه مكابر بغير عقل ، فلا يستحق أن يتجشم خطابه أو إقناعه ذو عقل .

دين شعب

دين بنى إسرائيل ، وإن كان دين توحيد وتنزيه ، قد اختص به شعب معين دون سائر الشعوب ، فهو إذن ليس الدين الذى يهتدى به الناس كافة ، ويجدون فيه شبع حاجتهم الفطرية إلى العقيدة .

والدين الذى يختص به شعب بعينه لابد وأن تتمثله سريرة ذلك الشعب ، فتكون سيرتهم فى العمل به كسيرتهم أصلا ، بحسب عقليتهم وفطرتهم وطبعهم . وكان بنو إسرائيل من قبل قوم أوثان وتعدد وتجسيم . وكانوا أشتاتا فى الأرض ينزلون هنا وينزلون هناك على شعوب غريبة ، فينفسون على أهل البلاد الأصلاء أن لهم وطنا وبأساً وسيادة وغلبة .

والناس منذ قديم يلتمسون فى أربابهم النقمة أو قوة السلطان والقدرة على المونة . فالتمسوا فى الإله الواحد أن يختص بهم ، لا يعبده أحد سواهم ، وأن يغلبهم من عداهم من الخلق ، وأن يمكن لهم فى أرض العباد ورقابهم ...

والدين — من حيث هو دين شعب — حرى أن يعنى بسن القوانين فى المعاملات وأن ينهى عن التجسيم . فتعوضوا عن أهدافهم التى صدهم عنها أهدافا أخرى . فأقاموا الهياكل كما تقيم الأمم الوثنية الهياكل لأربابها . وليقدموا القرابين والذبائح كما كان يقدمها عباد الأوثان ، مع فارق واحد هو أن من يتوجهون إليه بقرابينهم وشعائرهم فى تلك الهياكل والمذابح هو الإله الواحد الخالق القادر . . إله إسرائيل .

ثم أسفّ الشعب المسف بالتوحيد نفسه حتى جعلوا الأوثان فى بيوتهم ، يسمونها « الطرافين » . وحتى أقيمت لصنم البعل وغيره مذابح فى قلب هيكل سليمان .

وشعب هذا شأنه لا يصد عن الإسفاف والانتكاس إلا بالتخويف وهزيم النذير بين يدى عذاب شديد . فامتلأت أقوال أنبيائهم المتعاقبين بهذا التحذير والتهديد حتى صارت الصفة الغالبة للإله الواحد عند بنى إسرائيل أنه رب الجنود . وأنه القوى المنتقم الجبار الغضوب .

ذلك كله يصور سريرة ذلك الشعب ، ويطلعنا على ما تصير إليه عقيدة التوحيد والتنزيه إذا صارت إلى قوم تملأ قلوبهم المنافع والحرص على الدنيا . فهم لا يبغون رضوان الله خالصا

لوجهه ، ولا يعبدونه خالصا لوجهه ، ولا يجلونه عن هذه المراسم المادية فى تقديم القرابين والذبائح . إذ لا وجود فى إخلادهم إلا للمادة وما يتفرع عليها . أما الروح والضمير . أما النظرة الشاملة لبنى الإنسان كافة . أما الإخاء الذى يربط الأحياء برباط واحد هو رباط الوجود الحى . فذلك وعى لم يكن لديهم إلا مطموسا . فلم يكن همهم من الدين إلا تشريعا فى المعاملات يستحلون به أموال سواهم من الأمم وطقوسا فى العبادة هى أيضا ضرب من تشريع المعاملات وصيغ السندات والديون والمطالبات . فهى عبادة فى مقابل مؤازرة على عدو . أو زيادة فى إدرار الرزق.

دين قلب

ولكن العقيدة حاجة روحية أصلا . فلن تطول القناعة بالقعود دون التحليق ، ولن يطول الطور الذى يكتفى فيه بعقيدة يختص بها فريق من الناس دون فريق . فليس للروح والضمير وطن ولا جنس . والعقيدة التى يقنع بها الضمير ويطمئن إليها لابد أن تفتح الباب لجميع الشعوب ، وأن تفتح على الخصوص أمام الناس آفاقا عالية ، تتجه خلالها الروح إلى الله ، لا لأنه المرهوب الوهاب ذو الأيد والمنة فحسب ، بل لأنه مصدر الحياة والوجود والمثل الأعلى والمطلب الأسمى للاعتقاد ، تتجه إليه النفس مشوقة غير مسوقة ، ولا تستغنى بالمراسيم والمجسمات المحسوسة عن الغبطة بتأمل ذلك الكمال الأبدى المطلق الذى لا يتجسم ولا يدرك بالحس . ففى الاتجاه إليه سبحانه سعادتها الكبرى .

وبهذا ، كان الطور الطبيعى للإنسانية أن تتطلب الهداية ، فى رسالة المسيحية التى لا تدعو إلى التوحيد والتنزيه فحسب . بل

تجمل الله المعشوق الأسمى الذى يتجه إليه وجدان كل إنسان ، فيتلاشى من لبابه حب كل معشوق سواه ، ولا يبقى للحس وجاهه سلطان على قلب ذلك المحب ، ولا الطقوس قيمة . لأنه إذا حضر المحبوب لم يكن لتملى رسمه على الورق أو مناجاة طيفه معنى .

وأعنى بالمسيحية هنا ما جاء به المسيح من نصوص كلامه ، لا ما ألحق بكلامه وسيرته من التأويل .

فالمسيحية بهذا الاعتبار هى دين القلب الإنسانى من حيث هو كذلك ، بصرف النظر عن الفوارق الإقليمية والشعوبية ..

ولهذا نجد دعوة المسيح خالية من المراسم والطقوس ، كما خلت من تشريع المعاملات ، لأن موضوع المعاملات والحياة الدنيا برمتها لم تدخل له فى حساب بشقيها من مال وقصاص .

ولكن البشرية لم تنضج لهذا الدور نضوجا واحداً متساوقا. لأن عقيدة القلب الخالص من كل علائق المادة هى بطبعها عقيدة الأفراد الأفذاذ . أما السواد من الناس ، فللحس على قلوبهم أبداً سلطان غير مجحود ولا مردود .

لهذا بقيت المسيحية فى حقيقتها دين قلة من الأفراد ميسرين لها . وكانت نتيجتها المنطقية تلك الرهبانية المنعزلة عن الدنيا ومعاناتها . أما السواد من الناس فراحوا يلبسون أوثانهم الحسية

وعقائدهم المادية طيالس العبادة الجديدة، فتمثلوها كما تصورها لهم عقولهم . واطمأنوا إلى هذا التصوير .

ولهذا لم يستطع السواد الارتقاء إلى المستوى الروحي العالي الذي هو مضمون دعوة السيد المسيح .

ولم يسلموا — لتعلق قلوبهم بالدنيا وغشيان المادة وسلطانها على تفكيرهم — من ظهور عقابيل التجسيم والتنطس في المواسم تتخذ عناوين الدين الجديد وتتزيا بزيه ، لأنها تلائم تقابل حالات النفس التي لم تنضج بعدُ لدعوى الروح الخالصة من قيد الجسد وشهواته وأوهامه .

دين البشر

ولم يزل الناس بحاجة إذن إلى عقيدة جديدة ، يجتمع إليها العقل والقلب جميعاً ، وتصحح ما تَرَدَّوْا فيه من الأخطاء فى تفهم ما سبق من عقائد ورسالات .

إن الناس بحاجة بعدُ إلى دين يؤكد وجود الله ، وأنه خالق الخلق ، وأنه الكامل المنفرد بالكمال ، بيده الأمر ، وهو على كل شيء قدير . ويؤكد وحدانية الله توكيداً يقضى على عقابيل التعدد فى تصور الإله . . ويلزم كذلك أن يؤكد هذا الدين التنزيه لله ، حتى لا ينزلق الناس إلى التجسيم الذى طالما وقعوا فيه بعد كل دعوة للتوحيد بسبب غلبة الحس عليهم .

هذا من جهة مضمون العقيدة الجديدة .

أما من جهة موقعها من الناس . فينبغى أن يتجه الدين الجديد إلى الناس كافة . لا فرق فيهم بين شعب وشعب ، ولا بين جيل جيل ، ولا بين طبقة وطبقة .

وينبغى كذلك أن يكون فى هـذا الدين الجديد مقنع للممتاز

اليسر لأشواق الروح ، وأن يكون فيه كذلك لصاحب الدنيا ملحظ يلفته إلى آفاق الروح ، وشعوره أن ثمة ارتباطاً بينها وبين السعى فى سبيل الدنيا ، فيجد لهذا السعى مدداً من عاليين لا يحقر فى عينيه مطالب الحياة ، ويجعل فى قلبه موئلا للشعور بالرضا والكرامة ، لأنه استطاع أن يكون صالحاً وهو من هل هذا العالم المعنيين بأموره ومهامه ومطالبه .

لن تكون الحياة الدنيا فى هذا الدين الجديد رجساً ، بل هى من ملك الله وطيبات نعمائه . فالله صاحب الدنيا كما هو صاحب الآخرة . وهو سبحانه خالق الحس بما يفرضه من دوافع الحياة ومطالبها . وهو فاطر طلبها فى النفس . . . وإنما هى الحدود الشرعية يفرضها الله فى دينه فإذا السعى فى سبيل الدنيا على سنن تلك الحدود وقد أمسى تحصيلا للمثوبة فى الآخرة بالطاعة والإحسان .

وللمفكر والمؤمن معاً فى الدين الجديد مكان أولها ينبغى أن ينتهى إلى ما ينتهى إليه الآخر ، لأن الحق واحد فى جميع السرائر والضمائر متى أحسنت التماس والاهتداء .

وهكذا لابد أن يكون الدين الجديد عقيدة تصلح للكافة ، العامة منهم والخاصة ، يشعر كل منهم أن له عقيدة يطمئن إليها ،

وأن هذه العقيدة رباطه بالدنيا ، وبالآخرة ، بالله وبالإنسان ، فالناس أمة واحدة فى هذا الدين الجديد . . .

هذا الدين المرموق هو دين البشر . . .

وكان الإسلام هو الذى انبرى للنهوض برسالة هذا الدين . .

وسنرى كيف نهض الإسلام بهذه الرسالة التى لَبَّتْ حاجة البشر الطبيعية فى ذلك الطور المبين من أطوار الاعتقاد . . .

الله

لا يدع القرآن شائبة من ريب فى مسألة وحدانية الله ، فجاء فى (سورة الإخلاص) :

« قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ »

ولا فى تنزيهه عن الشرك والتعدد :

« لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ »

وفى ذلك نقض لعقائد الشرك ، وتصحيح لعقائد أهل الكتاب أيضاً ... فقد صار أتباع المسيح إلى القول بألوهيته ، وأنه ابن الله . وأن الإله الواحد ، جوهر واحد ، له ثلاثة أقانيم هى الله الأب ، والله الإبن ـــ وهو المسيح ـــ والروح القدس . وشبهوا ذلك السر الإيمانى المسيحى بالشمس ، وكيف أنها حقيقة واحدة ، تقع على الحواس قرصاً ، ونوراً ، وحرارة ..

ولم يرد على لسان المسيح فى أقواله الواردة فى بشارات

حوارييه (الأناجيل) إشارة إلى شيء من ذلك . بل كان يدعو نفسه على الدوام بـ« ابن الإنسان » .

وأما البنوة لله عزّ وجل، فما ورد لها ذكر إلا على سبيل المجاز المطلق ، وبمعنى يشمل البشر كافة ، حين أوصى أن تكون صلاة الناس إلى الله بادئة بقولهم « يا أبانا الذى فى السماء » .. وحين طالب أتباعه وجميع الناس أن يسلكوا طريق البر ، كى يكونوا جديرين بنسبتهم إلى الله . فالمسيح رفع خصوصية البر عن اليهود الذين قالوا : « إن أبناء إبراهيم وحدهم هم الناجون الظافرون برضوان الله » لأن الناس كافة أبناء الله ما سلكوا طريق البر ، وأحبوا الله ، وأحبوا إخوانهم فى الله ، حتى أعداءهم .

بل إن المسيح وعظ الناس فضرب لهم المثل فى رعاية الله وعنايته ، بما يتيحه من الرزق لطيور السماء ووحش الفلاة . وما يتيحه من الزينة لزنابق الحقل ، فلا ينبغى أن يكون حرصهم كله على مال الدنيا وقوتها وجاهها وزخرفها .. وما أقرب هذا أن يجعل رعاية الأبوة مطلقة شاملة لجميع الكائنات ، وما أبعد هذا أن يكون ذلك « السر » أو « اللغز » المعقد الذى اختلفت فيه أقوال المفسرين من أساطين الكهان وعلماء اللاهوت .

وقد أدى هـــذا اللبس إلى فتنة بل فتن بين صفوف أتباع

المسيح والمتسبين إليه . وجمعت المجامع ، ووقعت المذابح وصار الإيمان سبيلا إلى اللدد والفرقة ، لا إلى الألفة واجتماع العقول والقلوب على عقيدة يطمئن الجميع إليها .

وناهيك بعقيدة لبابها المحبة حتى للأعداء . تكون مثار ذلك كله .

وناهيك بعقول السواد ممن غيرت لهم فى الوثنية جذور عقلية وحسية منذ ألوف السنين ، كيف لا تنزلق إلى الشرك من باب هذا « السر » الذى يجعل من الواحد الفرد ثلاثة أقانيم !

لا بد من رد الناس إلى بساطة الاعتقاد ، ولا بد من نفى اللبس وشوائب الريب عن جوهر هذه العقيدة ، وهو التوحيد مطلق التوحيد .

إذن تعين أن يأتى الدين الجديد بحسم هذا الاختلاف الوبيل:

« قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَم يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ » . . .

لم يلد ولم يولد . فأقرب إلى العقل أن من يلد أحرى بأن يولد . . وما كان سبحانه فرداً فى جنس ولا واحداً فى سلالة من نوعه . حاشا ! بل جلّ عن النظراء والأكفاء . فمن ذا الكفء لله؟.

وكان لا بد للدين أن يثبت قلوب الناس بالطمأنينة إلى عناية

الله بالخلق ، وإلى قدرته ، وإلى سلطانه المطلق على الكون كله .
فقرر القرآن فى عزم وحسم أن الله « خالق كل شىء » . « وَكَانَ
اللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا » .

هو الخالق ، وهو المدبر القادر . لم يخلق الكون ثم نفض
منه يده « أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُحِيطٌ » . . .

ولا يدع القرآن فى ذلك شكا ، فهو يقرر ويكرر فى أكثر
من موضع تلك الحقيقة الجوهرية ، التى تقر سلطان الله على الخلق ،
وتدعوهم للطمأنينة إلى عنايته ، والحرص على رضوانه . فجاء
فى سورة الحديد :

« هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ . وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » .

وجاء فى سورة الأعراف :

« وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا » وجاء أيضاً « أَلاَ لَهُ
الْخَلْقُ وَالأَمْرُ » .

وجاء فى سورة يونس :

« وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ »

وجاء فى سورة يس :

« وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

وجاء فى سورة فاطر أنه سبحانه :

« عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور » .

وجاء فى سورة المؤمنون :

« وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ »

وجاء فى سورة غافر :

« يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ »

* * *

وهكذا بدت العقيدة الإلهية فى الإسلام ناصعة الصفاء فى تجردها من الشرك وشبهاته ، ومن النقص وشوائبه على نحو حاسم كانت البشرية قد بانت فى حاجة ماسة إليه بعد الذى انتاب المؤمنين بالأديان من اختلاف وبابلة .

وأما والمسألة مسألة إيمان ، فمن آمن بعقيدة تنزه الله من كل مشابهة بالخلق ، وعن كل تعدد تجسم أو استدق ، يكون أقرب إلى طمأنينة العقل والنفس ممن يروضها على الإيمان بإله واحد ولكنه يحتال على تصور وحدانيته رغم أقانيمه المتعددة . ويحار فى وجه حاجته سبحانه إلى تعدد الأقانيم ، وقد كانت لعباده غنية عن تلك

الحيرة بتمام التوحيد ، فيغلق الباب دون كل تساؤل وكل إبهام ...

أما صفاته سبحانه فلا يدركها الحصر ، وإنما يتجلى للناس منها ما يعنيهم وما يكون على قدر إدراكهم .

وأول ما يجبه الناس أمر المحيا والممات ، فالله هو :

الْحَيُّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ . (سورة الفرقان)

وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ . (سورة المؤمنون)

كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ . (سورة القصص)

وتتوا كب آلاء الله على عباده . فهو الرازق الوهاب خالق ما فى الأرحام . العليم الحكيم البصير المنتقم ذو الجلال ...

وقد كانت لبنى إسرائيل تصورات مفزعة عن آلاء الله ، تكاد تنفى الطمأنينة وتبعث الهول . وما دين بغير طمأنينة يستقيم بها أمر الناس فى حقهم من الدنيا والآخرة ؟

إن كل سورة يفتتحها القرآن باسم الله « الرحمن الرحيم » .. لا يكتفى من هاتين الصفتين بواحدة دون الأخرى .. ويقول فى (سورة فصلت) :

« وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

ولا يجرى ذكر العذاب إلا ويطمئن الناس إلى العدل وإلى

الإعذار مع الإنذار ، فهو إذ يقول فى سورة البروج :

« إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » .

يردفها بقوله :

« وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ » .

وجاء فى سورة الإسراء :

« وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً »

ولئن كان أقوام يؤمنون بأن الله ينتقم من الأحفاد لآثام أجدادهم الغابرين، وأن حصرم الآباء يضرس به البنون ... فالقرآن قاطع فى نفى هذا الجور المستعصى على الفهم فيقول فى (سورة فاطر)

« وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

ويقول فى البقرة :

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وهو توضيح أو تصحيح كان لامحيص منه ، وإلا وجد العقل البشرى فى سنن الله ثلمات تزعجه وتصده عن الإيمان والتسليم .

وكأنما بقيت بعد تلك الصفات وقفة قد يقفها عقل البشر الذين

درجوا ألوف السنين على التجسيم وهو تصوير كل شيء في صورة الجسم الذي له موضع محدد وأين معين .

ويأتى القرآن بالجواب ، حاسماً قاطعاً لكل شك :

« وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ . فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » (البقرة) .

« لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارُ . وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » . (الأنعام) .

« وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ، فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ : فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُون » (البقرة) .

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد » (سورة ق) .

ويحار البشر . فيقضى على تلك الحيرة بذلك القول الفصل :

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » (الشورى) .

عقيدة واحدة بسيطة يقطع الإيمان بها الطريق على كل حيرة وخوف ، ويبعث الطمأنينة فى كل نفس .

وباب هذه العقيدة مفتوح لكل إنسان ، لا يصد عنها أحد بسبب جنسه أو لونه :

« قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْض » . (الأعراف)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ . إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » (الحجرات) .

وهكذا يجد كل إنسان له مكاناً فى ظل هذه العقيدة الإلهية على أساس من المساواة العادلة ، التى لاتفاضل معها إلا بالتقوى ، تقوى الله رب « العالمين » ...

الإنسان

أما الإنسان ، فوقف بعد اليهودية والمسيحية موقفا لا يحسد عليه كثيراً ، بسبب ما التصق به من وزر أبيه الأول آدم ، ذلك الوزر الذى اعتبر خطيئة أولى ، وخطيئة باقية موروثة ، لا بدلها من كفارة وفداء حتى لا يذهب بجريرتها أبناء الجنس البشرى كافة .

وإن أنس لا أنس ما ركبنى صغيراً من الفزع والهول من جراء تلك الخطيئة الأولى ، وما سيقت فيه من سياق مروع ، يقترن بوصف جهنم ذلك الوصف المثير لمخيلة الأطفال ، وكيف تتجدد فيها الجلود كلما أكلتها النيران ، جزاء وفاقا على خطيئة آدم ، بإيعاز من حواء . وأنه لولا النجاة على يد المسيح ، الذى فدى البشر بدمه الطهور ، لكان مصير البشرية كلها الهلاك المبين .

وإن أنس لا أنس القلق الذى ساورنى وشغل خاطرى عن ملايين البشر قبل المسيح ، أين هم ؟ وما ذنبهم حتى يهلكوا بغير فرصة للنجاة ! ؟ .

فكان لابد من عقيدة ترفع عن كاهل البشر هذه اللعنة ، وتطمئنهم إلى العدالة التى لا تأخذ البرىء بالمجرم ، أو تزر الولد بوزر الوالد ، وتجعل للبشرية كرامة مضمونة .

ويحسم القرآن هذا الأمر ، حين يتعرض لقصة آدم ، وما يروى فيها من أكل الثمرة المحرمة فيقول فى سورة طه .

«وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ » .

ويقول فى سورة البقرة :

« فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

وآدم ، أبو البشرية ، كرمه الله بخلقه على صورته ، وفضله على الملائكة ، وقد جاء فى سورة البقرة .

« وإذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا » .

ذلك أن الإنسان قادر على الخير والشر .

وليس كالملائكة التى لاقدرة لها إلا على الخير ، فله عليها فضل الإرادة لما يأتيه من الصالحات .

أما بنو آدم ، فتقول سورة الإسراء .

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً » .

ويخاطب الناس فى سورة الحج بأن :

« سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ »

وفى سورة لقمان أن :

« سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ » .

إن المسئولية هى أساس الكرامة الإنسانية ، وأساس كل حرية ، وكل أخلاق ممكنة . وهذا ما قطع به الإسلام ، ووضع به الحجر الأساسى لكرامة بنى آدم . فيقول فى سورة النجم :

« وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى » .

ويقول فى أكثر من سورة ، على سبيل التأكيد « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » . وهو القائل فى سورة التين .

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » .

هذه المسئولية هى التى يسميها القرآن الأمانة : تلك الأمانة التى جاء فى سورة الأحزاب :

« إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ

فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ » .

ثم نجد فى سورة الإسراء :

« وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ » . .

والحق أنه لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة إلا من نشأ فى ظل تلك الفكرة القاتمة ، التى تصبغ بصبغة الخجل والتأثم كل أفعال المرء ، فيمضى فى حياته مُضىّ المريب المتردد ، ولا يقبل عليها إقبال الواثق ، بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث .

إن تلك الفكرة القاسية تسمم ينابيع الحياة كلها ، ورفعها عن كاهل الإنسان منة عظمى ، بمثابة نفخ نسمة حياة جديدة فيه . بل هو ولادة جديدة حقا ، وَرَدُّ اعتبار لا شك فيه . إنه تمزيق صحيفة السوابق ، ووضع زمام كل إنسان بيد نفسه .

والناس فى كرامة البشرية أمة واحدة ، بغير تفريق ، فقد جاء فى سورة الأنبياء :

« إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ »

وجاء فى سورة الحجرات :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » .

أجل ! لا عصبية ولا شعوبية ولا فروق من حيث اللون أو اللغة . وهذه سورة الروم تقول :

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ... وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ » .

وهكذا صار الناس سواسية كأسنان المشط ، أكرمهم عند الله أتقاهم . ثم « يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » (سورة المجادلة) و « هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ » (سورة الزمر) .

ألا من له أذنان للسمع فليسمع !

* * *

وأن من كرامة الإنسان على نفسه أن يتبع الحق ، ويجهر به ويحتمل فى سبيل ذلك من العذاب ما يصيبه بنفس راضية . وعلى المؤمنين أن يتواصوا بالصبر كلما تواصوا بالحق . أو كما جاء فى سورة العصر .

« إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

وإن الغلبة للحق فى نهاية المطاف على كل حال .

« بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ، فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » (سورة الأنبياء) .. « وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً » (سورة الإسراء) .

أجل ! وينبغى أن يقر الإنسان الكريم بالحق ولو على نفسه وآله الأقربين ، كما ورد فى سورة النساء .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ » .

إن الحق مقدس ، ولو كان فيه نصرة عدوٍّ أو مغنم له ، فذلك هو لباب التقوى . فقد جاء فى سورة المائدة .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .. » .

ثم جاء فى ختامها « هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ . ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

وتشيد سورة الفرقان بالصادقين : « وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا » .

وإن الإنسان الكريم العزيز بإيمانه لصبور على المكاره إن أوذى فى سبيل الحق :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » (سورة البقرة) .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (سورة آل عمران) .

« وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (سورة إبراهيم) .

هى الشجاعة فى الحق ، والشهادة لله ، والصبر على الإيذاء فى سبيل الحق ، إنها لصفات الإنسان الكريم على نفسه حقا .

ولكنها لا تتم روعة إلا بالخشوع للرحمن .

« لَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ . وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ، الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » (سورة البقرة) .

وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُور . واقْصِدْ فِي مَشْيِكَ . وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » (سورة لقمان) .

« كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّار » (سورة غافر)

« إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ » (سورة النمل) .

وأشهد كم تميعت نفسي وغثيت كلما رأيت عتلا من المستكبرين الذين غرهم من الدنيا ظل من السلطان . وما دروا لغفلتهم أن السلطة فى ذاتها ليست شيئا ، وأن الولاية على الناس جذوة من النار ، أما الشيء حقاً ، فهو رعاية الله فى حقوق الناس ، واستخدام السلطان للخير والعدل فى غيرة على الحق ، وحماسة لنصرته ، وابتغاء لوجه الله لا يعرفه إلا الخاشعون . وأكاد أقذف فى وجه القدم من هؤلاء بما جاء فى سورة الإسراء :

« . . . . وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً » . .

ولا تتم صورة الإنسان الكريم الغيور على الحق ، الصادق فى القول ، الصابر فى الهول . الخاشع للرحمن ، إلا بأن يكون صادق الوعد ، موفياً بالعهد والعقد :

* «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً» (سورة الإسراء).

* « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » (سورة المائدة).

« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا . إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ ». (سورة النحل) .

وما من خلة أزرى بالإنسان الكريم من النفاق . وقد أنحى عليه القرآن إنحاء عنيفاً :

« إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى. يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً . مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ، لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ». « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (سورة النساء).

« يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ »(سورة آل عمران) .

فالإنسان الكريم حتما لا ينافق ، ولا يخشى فى الحق شيئا ، ينصر الله ، والله ناصره . ذلك جوهر إيمانه . وإنه بذلك لعزيز المكان فى الدنيا والآخرة ، لا يسعى فى دنياه سعى الغريب الذليل :

«وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » . (سورة القصص) .

وهكذا يكون الإنسان متكامل الجوانب لا يشكو « فصام ». الروح والجسد ، ذلك الفصام ، الذى عانى منه الكثيرون . ولا يعرف (الفصم) إلا من يكابده . . .

وبهذا يكون الإنسان سيد الأرض حقا ، لا ينظر إلى طيباتها نظرة الحسير ، ولا يمشى فى جنباتها مشية الأسير ، ولا يثقل كاهله الخزى من نوازعه ، فى يده زمام نفسه . وقد أحل له مالم يرد فيه تحريم ، تقرّ به عينه فى غير حرج ولا غضاضة .

النبوّة

لا تأليه ولا شبهة تأليه فى معنى النبوّة الإسلامية . وهى مسألة كانت تحتاج إلى توضيح وحسم ، وقد درجت شعوب الأرض على تأليه الملوك والأبطال والأجداد ، فكان الرسل أيضاً معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين الألوهية بسبب من الأسباب ، أو بنسب من الأنساب . فما أقرب الناس لو تركوا لأنفسهم أن يعتقدوا فى الرسول أو النبى أنه ليس بشراً كسائر البشر ، وأن له صفة من صفات الألوهية على نحو من الأنحاء .

ولذا نجد توكيد هذا التنبيه متواتراً مكرراً فى آيات القرآن ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ، ما جاء فى سورة الكهف :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ .. » .

وفى تخير كلمة « مثلكم » معنى مقصود به التسوية المطلقة ، والحيلولة دون الارتفاع بفكرة النبوّة أو الرسالة فوق مستوى البشرية بحال من الأحوال .

بل نجد ما هو أصرح من هذا المعنى فيما جاء بسورة الشورى :

« فَإِنْ أَعْرَضُوا ، فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا . إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ! » .

وظاهر فى هذه الآية تعمد تنبيه الرسول نفسه إلى حقيقة مهمته ، وحدود رسالته التى كلف بها ، وليس له أن يَعْدُوَهَا ، كما أنه ليس للناس أن يرفعوه فوقها .

بل كأنما احتاج هذا التنبيه إلى مزيد من الصراحة ، فجاء فى (سورة قٓ) :

« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » .

ومن هـــذا القبيل أو أبين منه وأصرح ما ورد فى (سورة الغاشية) :

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ » .

* * *

رسول بشر . ما عليه إلا البلاغ بما يوحى إليه من ربه . ولا زيادة ..

وتوكيد القيمة البشرية بحدودها للرسول ليس بلفظ الآيات فحسب ، بل هو معنى تنطق به كيفية الرسالة كلها ، وتاريخ الرسول كله .

إن رسول الإسلام هو أول رسول بعث إلى الناس وانبرى

لدعوتهم إلى دينه من غير مدد من المعجزات الخاطفة للأبصار الخالبة للألباب . فقد أريد للناس أن يشعروا أن رسولهم « مثلهم » حقاً وصدقاً كما جاء فى سورة الكهف . لا يملك من الخوارق أكثر مما يملكون . وليس له من سلطان عليهم . وإنما الأمر إليهم ، كى يكون اهتداؤهم نابعاً من قدراتهم البشرية ، وعن اقتناعهم الذاتى ، بغير تأثير غريب عن معدن العقل والضمير . . فيكون اهتداؤهم إيماناً ليست فيه شائبة استهواء أو توريط .

وما توانى العرب عن مطالبته بإخراج ما ظنوه فى جبِلة كل صاحب نبوّة ، وما أرادوا بذلك إلا الملهاة :

« وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ : إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ » (سورة يونس .)

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » (الأنعام) .

« قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ . وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ . إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (سورة الأعراف) .

ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء .

حقاً ! وما أكثر ما أوذى ، وما أشد ما أساءوا إليه به ، وهو لا يملك لذلك دفعاً ، إلا الصبر على البلاء :

حقاً ! بل وتخطف الموت فلذات أكباده .. ليكون ذلك إيذاناً بأن البشر الرسول ليس له امتياز على سائر بنى آدم . فتسقط دعوى الناس فى التقصير عن الاهتداء به . فلو كان يجرى عليه غير الذى يجرى على البشر ، لكانت لبعضهم الحجة بأن استطاعتهم دون استطاعة هذا الرسول ، فأين هم منه ؟ وكيف يكلفون بما لا طاقة لهم به ؟.

بل هو « مثلكم » لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً . ويمسه السوء والثكل مرة بعد مرة .. ففيه قدوة سوية وأسوة عادلة لكل من نشد الاهتداء والاقتداء .

وفى يقينى أن تأييد دعوة حق بخارقة غير طبيعية مسألة لا تستساغ إلا فى حالات انحطاط العقل البشرى ، فهذا أشبه بالاحتيال على الطفل ليقبل على الطعام الذى يقيم أوده . وهو حرى أن يطلبه ويلح فى طلبه لو أوتى الرشد .

كذلك العقل السوى يجد امتهاناً له أن يحتال عليه صاحب دعوى بخارقة لا علاقة لها بصدق تلك الدعوى ؛ فإن كل دعوى صادقة أو كاذبة لذاتها لا لأمر خارج عنها . فالحقيقة آية نفسها ولا مراء فى ذلك .

لهذا كان لا بد للعقل البشرى فى طور رشده أن تأتيه الدعوة

إلى الهداية بأسلوب عقلي صرف ، يحترم فطرته وبداهته .

وتلك قرينة أخرى على أن دعوة الإسلام جاءت موافقة للطور الطبيعي للبشرية تاريخاً ، ونصوصاً ، ورشداً .

وكان القرآن يؤكد على الدوام أن الرسول ليس ساحراً ولا كاهنا ولا مجنوناً ممن بهم لوثات الصرع . . وينبه إلى المعجزة الخارقة لاتفيد في إقناع مكابر ، وفي ذلك ماجاء بسورة الحجر :

« وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ . وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » .

ومن أنعم النظر في هذه الآيات من سورة الإسراء يجد فيها حكمة الإصرار على بشرية الرسول ، وأن آيته الوحيدة هي صدق رسالته . وذلك حسبها من سند ، وحسب الناس لو كانوا مهتدين غير مكابرين . فما شاء الرحمن أن يكون الرسول ملكا من الملائكة ، حتى تكون بشرية هذا الرسول حجة على الناس وقدوة :

« وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ

الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ،وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ . قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي ! هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً ؟ . قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً . قُلْ : كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً » .

* * *

ولا أملك نفسي من الإعجاب أن أورد هنا ماقاله الإمام محمد عبده في مفتتح كتابه « الإسلام والنصرانية » :

« فالإسلام في هذه الدعوة لايعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري . فلا يدهشك بخارق العادة ، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة . ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولايقطع حركة فكرك بصيحة إلهية .

« وقد اتفق المسلمون إلا قليلا ممن لايعتد برأيهم فيه ، على

أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات ، وأنه لا يمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان بالله . فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة . فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله ، وبأنه يجوز أن ينزل كتاباً أو يرسل رسولا » .

رحم الله الأستاذ الإمام !

***

إن الحقيقة باقية والبشر زائلون .

الرسالة إذن هى الباقية ، وما هى بمتوقفة فى شىء على بقاء هذا الرسول :

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ . . »

إنها لحقيقة . ولكن كان لا بد من تقريرها لتوكيد بشرية هذا الرسول . . وليس أدل على لزوم هذا الاحتياط من افتتان الناس برسولهم وجنوحهم إلى الخروج به عن مستوى البشر الفانين ، من أن إماما مثل عمر بن الخطاب ، على رجاحة عقله ، وقوة إيمانه ، وهو من هو من الإسلام ورسوله ، أبى أن

يصدق أن الرسول نزل به طائف الموت . .

ولولا أن أبا قحافة تلا عليه وعلى الناس هذه الآية لقطع عمر أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات .

« أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ » .

كان من الجائز أيضاً أن يقتل بيد عدو من أعداء دعوته وما أكثرهم ، وما كان ذلك لينفى شيئاً أو يثبته . فإن الحق حق لذاته ودعوة الإسلام صادقة لذاتها ، عاش الرسول أو مات أو قتل .

هذا إذن هو مكان النبوة فى ذلك الطور الأخير من أطوار العقيدة الإلهية . . يتنزه الله فى تلك العقيدة عن أساليب جوبيتر وأشباه جوبيتر . وليس أنبياؤه كهاناً ولا ملائكة ولا سحرة ولا منجمين . . وإنما هم بشر يأتيهم الوحى من الروح الأمين . . وليس عليهم إلا البلاغ المبين .

ولكن هل تتكرر تلك النبوة على ذلك الأسلوب ؟

لاحاجة للبشرية بذلك التكرير . فإن طور الأسلوب العقلى المجرد هو آخر أطوار البشرية . ومن تفتح عقله ، وبلغ رشده ، فطائره فى عنقه ، وعليه بعد ذلك أن يعمل فكره ، وقد تسلم قياد نفسه .

للرسالة خصوصية هى إتمام ماسبق • ومتابعة البشر فى أطوار نضجهم بما يناسبهم من الهداية والصلاح . فما هى الخصوصية التى يمكن أن تكون موضوع رسالة جديدة بعد رسالة الإسلام ؟ .

لقد تمت فكرة التوحيد . وتم خطاب العقل . وتم البلاغ إلى الناس كافة ، أحمرهم وأسودهم ، وتمت كرامة الإنسان وصلته بربه ، وبدنياه . وتركت لهم مصالحهم المرسلة يعالجونها على ذلك الأساس حسبما يستجد لهم من الأمور . فكل رسالة بعد ذلك قول معاد ، ليس فيه جديد يستفاد :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي . . » .

وبسبب من طبيعة الرسالة ، ومن الحاجة الطبيعية للناس إليها ، كان من الطبيعى أن يكون هذا الرسول خاتم الرسل ، لأن رسالته كانت خاتمة الرسالات .

حواء

المرأة فى الإسلام إنسان له كل حقوق الإنسان وكل تكاليفه العقلية والروحية . فهى فى ذلك صِنْوُ الرجل تقع عليها أعباء الأمانة التى تقع عليه . . أمانة العقيدة والإيمان وتزكية النفس ، فجاء فى سورة الأحزاب :

« إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ، وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً » .

وقد نجد هذا اليوم من بدائه الأمور . ولكنه لم يكن كذلك فى العالم القديم ، فى كثير من الأمم حيث كانت المرأة تباع أحيانا كثيرة كما تباع السلعة . يبيعها أبوها أو رأس عشيرتها أو زوجها . وكانت فى كثير من الأحوال منقوصة الأهلية لا تمارس التصرفات المالية والقانونية إلا عن طريق وليها الشرعى أو بموافقته .

بل لم تكن تملك تزويج نفسها على الخصوص ، وإنما الأمر فى ذلك لوليها يجريه على هواه .

وأكثر من هذا ، كانت قبائل العرب فى الجاهلية تئد البنات كراهة لهن وازدراء لشأنهن ، ومن لم يئدهن كان يضيق بهن ضيقاً شديداً .

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » (سورة النحل) .

وفى هذه السورة عينها إشارة إلى المساواة عند الله بين الذكر والأنثى بغير تفريق فى التكليف أو الجزاء :

« مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وفى سورة النساء إشارة صريحة إلى مساواة المرأة والرجل فى ثمرات الأعمال والجهود :

« لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ » .

وفى بعض الأمم القديمة ، وفى بعض الأمم الحديثة ، كانت المرأة تحرم غالباً من الميراث ، فأبى الإسلام هذا الغبن الفاحش ، ونص على ذلك فى سورة النساء :

« لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً » .

وهذا النصيب المفروض : « للذكر مثل حظ الأنثيين » باعتبار أن نفقات المرأة تقع على عائلها من الذكور بالغاً ما بلغ ثراؤها . أما الذكر فهو عائل أهل بيته من أولاد ونساء . فأعباؤه المالية أبهظ من المرأة بكثير . وهذه القسمة إذن أقرب إلى مجاملة المرأة فى شئون الأموال الموروثة .

***

ولا يخوض إنسان فى موضوع المرأة فى الإسلام من غير أن تخطر بباله قضية تحرير المرأة فى هذا العصر ، ومساواتها بالرجال ويخطر على البال حتماً قول القرآن فى سورة النساء :

« الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ » .

وما جاء فى سورة البقرة :

« وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » .

فإنها تبدو لأول وهلة هابطة بالمرأة إلى « درجة » دون درجة الرجل . وفى هذا ما فيه من بواعث التساؤل ، فى زمن

استفحلت فيه قضية المساواة بين الجنسين وتقررت فى جميع الأمم الآخذة من الحضارة بنصيب .

وهنا لا بد من الرجوع إلى مسوغ هذا التفاوت أو التفضيل وليس كل تفضيل جوراً . بل إنه متى كان التفضيل لفضل ثابت ، فهو العدل الصراح .

وليس المفروض أن يكون هذا الفضل مطلقاً بغير قيد أو شرط لجنس معين من الجنسين ، بل إن التفضيل — عقلا — لا يصح إلا بحصول الفضل وتحققه . يرتفع بارتفاعه ، ويوضع بوضعه ، ويتحول بتحوله .

فما الفضل المشاهد للرجل على المرأة ؟ . .

إنه حاميها . وإنه عائلها . وإنه تركن إليه وتلوذ به . وإنه أعلم منها وأبصر بأمور الدين وأمور الدنيا . وإنه أحظى منها بنصيب من المواهب أو القدرات .

ولم يرد ذكر القوامة على النساء على إطلاقها للذكورة بغير بينة بل قيل :

« الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ » .

فهناك إذن وجهان لحصول تلك القوامة : هو إرباء الفضل والإعالة ، أو النفقة المالية .

وشق الإعالة أو النفقة قد تجد له المرأة حلا فى نزولها إلى ميدان الأعمال ، وقيامها على أمر معيشتها كالرجل أو أكثر منه وأحجى .

وأما إرباء الفضل ، فهو رهن بإصابة نصيب من التمام ، أو البراعة فى فن من الفنون ، أو رجاحة العقل ونباهة الذكر : وهى مقررات الفضل بنص القرآن . فقد جاء فى سورة المجادلة .

« يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » .

ولا يغيبن عن البال ورود « درجات » بصيغة الجمع ، وقد وردت فى سورة البقرة عند التعرض للمرأة والرجل بصيغة المفرد :

« وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » .

وجاء فى سورة الزمر :

« هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » .

وجاء فى سورة النساء :

« لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ » .

إن العلم يرفع صاحبه على من لا علم له ، فالعالم خير من الجاهل والجاهلة . والعالمة خير من الجاهلة والجاهل .

والمؤمن خير من الكافر والكافرة . والمؤمنة خير من الكافرة والكافر .

والمجاهد فى سبيل الله بأمواله ونفسه خير من القاعد عن الجهاد والقاعدة . والمجاهدة فى سبيل الله بأموالها ونفسها خير من القاعدة عن الجهاد والقاعد .

لا تفضيل بغير فضل ، ولا تشريف بغير تكليف ، وإنما كان العرف جاريا بانحباس المرأة عن هذه المجالات ، ومتى زال هذا العائق ، وارتفع عنها القصور أو التقصير ، فهى حقيقة بثمرات فضلها وقيامها بتلك التكاليف الجسام .

ولا أعتقد أن الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس يكون بالحرب والفتح فحسب ، بل وبكل عمل صالح لخير عباد الله بنشر العلم أو رفع المرض أو هداية الناس إلى ما تصح به نفوسهم وييسرون به للخير ومرضاة ربهم فى أمور دينهم ودنياهم .

فليس الإسلام — على حقيقته — عقيدة رجعية تفرق بين الجنسين فى القيمة . بل إن المرأة فى موازينه تقف مع الرجل على قدم المساواة . لا يفضلها إلا بفضل ، ولا يحبس عنها التفضيل

إن حصل لها ذلك الفضل بعينه فى غير مطل أو مراء .

وما من امرأة سوية تستغنى عن كنف الرجل بحكم فطرتها الجسدية والنفسية على كل حال .

وذلك حسب عقيدة لتكون صالحة لكل طور اجتماعى على تعاقب الأطوار والعصور ، على سنة العدل التى لم يجد لها عصرنا اسما أوفق من « تكافؤ الفرص » ، الذى يلغى كل تفريق ، ويسقط كل حجة ، ويقضى على كل تمييز إلا بامتياز ثابت صحيح .

الـزواج

الزوجة الواحدة أو الزوجات الـكثيرات .

هذا هو لباب مايثور حول موضوع الزواج فى دين الإسلام. فلابد من وقفة هاهنا لنتبين الحقيقة فى هذا .

من المسلم به أن الدين لايقصد به مستوى من البشر دون مستوى ، ولا عصر من العصور دون سائرها ، ولا بيئة من البيئات بعينها . وإنما يراد به التشريع للـكافة وتنظيم حياة البشر من حيث هم كذلك ، مع مراعاة فطرتهم السوية . . ولـكن مع الإشارة إلى مافوق ذلك من درجات السمو التى لايبلغ إليها إلا الخاصة وأولو العزم من الناس .

وعلاقة المساكنة بين الذكر والأنثى هى أساس الأسرة . وهى تنبعث من غريزة طبيعيـــة ينظمها التشريع أو العرف الاجتماعى ما وسعه التنظيم ، عسى أن يضع حدوداً لتلك القوة الحيوية العارمة ترتفع بالإنسان فوق مستوى البهيم .

وما من شك فى أن نظام الزوجة الواحدة الدائمة نظام مثالى

ومن البديهى أيضاً ألا يطيقه إلا المثاليون. وخاصة ذوى العزم. وما لهؤلاء نحسب جعلت هداية الدين.

ونظرة إلى واقع الحيـاة البشرية فى تاريخ مجتمعاتها الغابرة والحاضرة، تطلعنا على تعدد النساء فى حيـاة الرجل الواحد، سواء جهراً أو سراً، وسواء برخصة من القانون أو الدين، أو حتف القانون والعقيدة.

ومامن عاقل يفضل التعدد بغير رخصة على التعدد برخصة، فإن أثر الشعور بالإثم والاختلاس على السلوك البشرى بعامة أثر خبيث يسمم حلاوته ويعكر صفاءه الذى لا تقوم السعادة الروحية والنفسية بغيره.. فضلا عما فى العلاقات المختلسة من إضرار بالمرأة وإفساد لحياتها لا حيلة فيه.

ثم إن حياة البداوة والريف غير حياة الحضر. فنى الريف والبادية يعز القوت أحياناً ولاسيما على المرأة. وقد يكون فى عدد النساء زيادة عن عدد الرجال. فلايصان عرض المرأة ولا تستقر معيشتها مادياً ونفسياً إلا إذا صارت فى كنف رجل. وعندئذ لاحيلة فى التعدد، لأنه الحل السليم الوحيد، أو هو أسلم أساس لجماعات هذه حقيقة ظروفها. والضرورات تبيح المحظورات.

هى رخصة إذن تستخدم بحقها، وعند حصول مسوغاتها الطبيعية من أحوال البيئة، أو من أحوال الأفراد.

وما القول فى زوجة أقعدها المرض؟ وما القول فى الزوجة العقيم ؟ وما القول فى الزوجة الفاترة ؟ وما القول فى الزوجة السقيمة الأعصاب؟ أطلاقها أرحم بها ، أم إردافها بزوجة أخرى

لاشك أن الأمر واضح .

هى رخصة إذن تستخدم بحقها . ولكنها ليست إلزاماً فهذه سورة النساء تقول بصريح النص :

« فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » .

بل وتقول أكثر من هذا :

« وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ »

وفى هذا إيحاء ، بل حض على التزوج بواحدة .

وليس من الإنصاف فى شىء أن نقيس هذا الحض بمقياس زماننا وآدابنا . بل بمقياس زمان الدعوة وآدابه . ففى تلك البيئة الصحراوية الجاهلية كان التعدد مطلقاً من كل قيد . ومن هذا نفهم سر قول القرآن : « مثنى وثلاث ورباع » ، بلهجة من يعدد للطامع ماهو مباح ، بأسلوب يوحى بالتوسع ، وهو يرمى إلى التضييق كل التضييق . . وماأشبه هذا — فى تصورى — بالأب الذى يقول لطفله الشره إلى الحلوى شرها لايقف عند حد ، أو لايؤذن بقناعة دون العشرة والعشرين :

— سنعطيك واحدة فى الصباح، أو قل اثنتين . وثالثة فى الظهر ورابعة فى العصر . أرأيت أنى لم أبخل عليك ؟

أما مازاد عن ذلك فليس إليه سبيل !

ثم تلا ذلك الإيحاء بالواحدة لمن خاف الظلم عند التعدد ، وليس عن الظلم عند التعدد محيص .

أما فى غير تلك البيئة وشبيهاتها من بيئات البشر الذين تتوجه إليهم الدعوة ، فالمسألة أوضح ، ولن تضيرهم رخصة التعدد وهم على التوحد أو أقرب إليه طبعا ونشأة ، ولهذا قال الله تعالى : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » فى ميدان الفضل والتعفف سعة . وبه يتفاضل الناس بعضهم فوق بعض درجات .

***

ولا يتم النظر فى موضوع الزواج . ماتعدد منه وما توحد ، من غير النظر فى كيفية الزواج ، أو نوع الصلة الزوجية .

إنها ليست مسافدة حيوانية بين ذكر وأنثى ، على إطلاق بواعث الرغبة والاشتهاء الغريزى بين جنسى النوع البشرى . لغير هذا قامت كوابح الآداب وضوابط الشرائع والعقائد .

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » .

هكذا جاء فى سورة الروم . . وإنى لأرى فى قوله « من أنفسكم » لمسة تمس شغاف القلب . وتذكر بما فى الزواج من قربى تجعل الزوجة قطعة من النفس ثم أردف ذلك بالسكن ، وما أقرب السكن فى هذا الباب من سكينة النفس لا من مساكنة الأجساد ! . بدليل ما أردف بذلك من المودة والرحمة .

مشاطرة نفس ، وسكنها وسكينتها ، ومودة ورحمة . ما من شىء فى هـذه كلها من خصائص المتعة الشهوية والرغبة الجنسية البحت . فإن الشهوة تأخذ وتنال ، وهى معتصمة بأنانيتها وانعزالها عن الطرف الآخر ، ولا تزيد بعد مأربها إلا شعوراً بالعزلة والوحدة الموحشة . وشتان هذه والمشاطرة ، وسكن النفس ، والمودة والرحمة .

كل أولئك من صفات الحنان . الحنان الذى يرحم ويؤثر ، ومن صفات المحبة التى تعطى قبل أن تأخذ ، وتنيل قبل أن تنال ، وتقيم مطمئنة لتزداد بالمساكنة غنى وأمناً وأنسا . وتلك عليا مناعم المعاشرة الإنسانية ، بما فيها من غلبة الروح على نزوات الأجساد ودفعات الرغبة العمياء .

الزواج مطلب نفسى وروحى عند الإنسان ، وليس مطلباً شهوياً جسدياً وإن كان له أساس جسدى .

فما كان أحرى الناس ـ لو أن مطلب الجسد رائدهم ومبتغاهم ـ ألا يعرفوا حدود الزواج وقيوده ، التى تفرض الالتزامات على كل حال ، ثقلت تلك الالتزامات أو خفت ، وتربط بين الزوج وزوجه برباط هو قيد على كل حال ، وفى خارج الزواج لاقيد لمن كل همه متاع البدن وقضاء اللبانات الشهوية .

ورب قائل يقول : أما والزواج مطلب نفسى وروحى عند الإنسان وليس مطلباً شهوياً جسدياً وإن كان له أساس جسدى . . ففيم التعدد إذن ؟ وإن كان رخصة يهتبلها من شاء ويتنكبها متعففاً من شاء ؟ .. أما كان التوحد هو سبيل ذلك السكن النفسى بمعنى الكلمة ؟ .

والجواب أن هذا صحيح من حيث المبدأ ولامراء . ولكن المبادىء قلما تعيش فى دنيا البشر فتتيسر فى أمور هى أمس ما تكون بالحياة اليومية والحقائق المادية .

وأزيد الأمر وضوحاً :

أين هى الزوجة المثلى التى تملأ جوانب الرجل النفسية وتسكن إليها نفسه سكناً كاملا حتى لا يفتقد فى كنفها لوناً من السكينة والطمأنينة كان يرجوه أو يشتاق إليه ؟ .

قليل . أقل من القليل .

يقول سليمان الحكيم ، الذى عرف ألوف النساء من جميع الأصناف والألوان ، وقد اجتمع فى وطابه من التجارب الزوجية ، والنسوية مالم يجتمع لإنسان :

« الزوجة الفضلى أثمن من اللؤلؤ النفيس . من ذا يجدها ؟ ! »

إن من وجد هذه اللؤلؤة بين النساء لن تهفو نفسه إلى سواها ، بل يتملق بها تعلق الطفل بصدر أمه لا يرضى به بديلا ولا يروم عنه حِوَلاً .

وأما من لم يجدها ، ففى نفسه أشواق تظل ظمآى ، تتلفت صادية تنشد ريها هنا وهناك .

هنا وهناك هذا واقع نلمسه كل يوم ، وكل ساعة ! فى رجال محصنين بالزواج ، تصبو نفوسهم إلى غير زوجاتهم ، فى علاقات مختلفة ، تسف بهم وبشريكاتهم إلى درك الحيوان ، أو درك الخزى والتأثم المهدر لشعور الكرامة الذى هو خاصة الإنسان .

فراغ ينشد الامتلاء . فالطبيعة تفزع من الفراغ وتأباه كما يقول الحكيم القديم : ومن هنا يكون فى رخصة التعدد ملاذ يكفى الناس شرّين : أولهما شر التورط فى الآثام التى قد تشوه النفس مهما أرضت نوازع الأشواق الجسدية . وثانى الشرين تطليق

الزوجة القديمة لتفسح للزوجة الجديدة مكاناً فى نظام التوحد .
وقد تكون للزواج الأول ثمرات تذوق التشرد . وقد تكون الزوجة الأولى مثقلة بالسنين أو العلة أو الأبناء أو عاطلة من الجمال ، خالية اليد من مهنة ، خاوية الوفاض من مال فتتقوض حياتها . ولعلها كانت تؤثر البقاء فى كنف زوجها على كل حال .

إنى أعرف من تجربتى الشخصية حالات كثيرة من هذا القبيل ، سأذكر منها حالة جارٍ لتاقى دمنهور منذ عشرين سنة كان متزوجاً من سيدة قضى معها ربع قرن لم تشركها زوجة أخرى ، وكان لهما ولد واحد تجاوز العشرين من عمره ، ثم مات فجأة . . . وخيم الحزن على البيت . . . وكان واضحاً أن الزوجة بلغت سن اليأس منذ زمن . . وإذا بها تلح على زوجها أن تخطب له زوجة تنجب لها ولداً تقر به أعينهما فى خريف العمر !

وخطبت الزوجة لزوجها . وأعرس فى دارها ، وكانت الزوجة الأولى من أبر الناس وأرفقهم بالزوجة الجديدة وكأنها ابنتها . وكان فرحها بالمولود البكر فرحاً جارفاً فكأنما دبت الخضرة فى عودها الجاف ، وعود زوجها الثاكل . . وأشهد أن هذا الطفل كان ألصق بصدر زوجة أبيه الكهلة من صدر أمه

الشابة . وأشهد أنى أدركت من أحوال هذه الأسرة معنى ماحفلت به كتب بنى إسرائيل من ندب الزوجة العاقر جارية لها كى تحمل من زوجها وتلد لها نسلا !

وفى اعتقادى أن هذا الرأى المستمد من الواقع فى تحديد ظروف التوحد والتمدد هو أقرب ما يكون للتمليل الطبيعى .

ولو نظرنا إلى حياة الرسول نفسه لوجدناه لم يشرك فى فراشه أحداً مدة حياة خديجة ، وقد طال زواجهما ربع قرن تقريباً ، هو طور الفحولة فى حياة الإنسان ، ما بين الخمسة والعشرين والخمسين . ولم تتعدد زوجاته إلا بعد وفاتها .

وليس هذا موضع الكلام فى ظروف زواجه بأولئك الزوجات ، بل حسبنا الإشارة إلى أن خديجة كانت الزوجة المثلى فى حياة الرسول ، ظل يشهد بذلك ويغار عليها إلى ختام أيامه ، ويؤكد لعائشة الصغيرة البكر أن الله لم يبدله بخديجة خيراً منها قط ! .

زوجة مثلى ملأت فراغ النفس فسكنت إليها ، ولما ذهبت تركت فراغا هائلا لم تستطع واحدة أن تملأه . وأكاد أحس أن الكثيرات عجزن عن ملء هذا الفراغ الكبير على وجه التمام .

وأيا كان التعدد بموجبات تلك الرخصة ، فهو مشروط على

كل حال بالمودة والرحمة ، فلا تحل فيه المغايظة والإضرار الأنانى اللئيم ...

وبحسبى أن أشير هنا إلى ما يذهب إليه المعتزلة من تحريم زواج الرجال بثانية ما دامت الأولى فى عصمته لما فى ذلك من المضارة للزوجة وهى سيئة لا يستحسنها العقل .

وهذا فى اعتقادى من باب السمو الذى يحض القرآن عليه إذ أشار إلى الاكتفاء بواحدة خيفة الظلم الذى لا مناص منه فى حال التعدد . ولكن الرخصة واضحة ، والحكمة منها قاطعة بأن التعدد غير محرم لمن عجز عن الخطة المثلى وهى التوحد .

رخصة مبذولة لمن لا مندوحة لهم عنها . والمرتقى فوق ذلك مفتوح لمن استطاع وهو محمود . وها نحن نرى ظروف الناس تتقدم بهم يوما بعد يوم نحو سياسة التوحد فى الزواج ، مع ارتقاء العلم ، وانفساح الفرص للزواج عن بينة ودرس وتمحيص.

***

ولا بد فى هذا المقام من التعرض لناموس الزواج أصلا ، بعد أن أشاعت المسيحية حوله جوا خاصا ، خلاصته، أن العفة أو الرهبانية هى الأصل ، ومن لم يستطع ذلك فليتزوج . فكان الزواج رخصة يترخصها من لا مندوحة له من ذلك .

ولا شك أن هذا المفهوم مرتبط بفكرة الخطيئة الأولى ، واعتبار أن العلاقة الجنسية شر في ذاتها ولذاتها . وأن الجسد كله عورة بكل رغائبه وطلبه للطيبات من الدنيا ، فهذا الترهب ، مع النسك ، والصيام المسيحى العزوف عن أطايب الإدام ، أدلة على الضيق بالبدن ، وازدرائه ، وصحبته على مضاضة ، والنظر إلى مطالبه وإلى زينة الدنيا جملة ، نظرة عداء وخصومة .

البدن شر لابد منه . وكذلك الزواج . والخير كل الخير فى محاربتهما وعدم الانسياق لهما والإخلاد إليهما .

حياة لا طمأنينة فيها ولا قرار . وإنما هو الصراع المستمر . والقلق المستمر ، الذى تفسد به الدنيا . وتعيا به النفس . وقد كشف لنا علم النفس الحديث عن العلل والآفات المخربة التى تسمم ينابيع الحياة بسبب الشعور بالتأثم من الجسم وغرائزه النوعية .

وما حال إنسان يمارس الحياة حزينا مستخزيا من كل نبضة سرور بها وكل خاطرة استمتاع فيها وكل انتفاضة طبيعية إليها !

إن الإسلام لا يقاوم الحياة ، بل يقر الفطرة البشرية على تقديسها ، وصيانة ينابيعها من الأكدار . ولا يفصل بين حياة الروح وحياة الجسد حيث لا انفصال لهما فى واقع الجبلة التى جبلها خالقها الحكيم الخبير .

إن القرآن يكرر فضل الخالق وحكمته السامية فى إبداع الجنسين ، وكيف أن هذه سُنة الله فى خلقه كافة فى جميع مراقب الحياة . والرسول يؤكد أن الزواج نصف الدين .

وأى تعبير أقرب إلى فطرة الحياة ، ويرفع عن تلك الصلة كل شبهة فى خزى أو هبوط معيب ، مما ورد فى سورة البقرة ، بذلك التعبير اللطيف الرقيق اللبق .

« هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ » .

أو مما ورد فى سورة النساء فى باب تعظيم ما يكون بالزواج من ميثاق وعقد وعهد له حرمة ترعى :

« . . . وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا . . »

بل إن الكراهة أمر لا يسوغ البدار إلى فصم العروة الوثقى . كما جاء فى سورة النساء أيضاً :

« . . وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا . » .

إن الأساس فى ذلك العقد أنه لاضرر ولا ضرار « فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » . كما جاء فى سورة البقرة . وإن ذلك لمسبار الخلق الكريم الذى يترفع فى سمت الفروسية عن

الافتئات النميم والجور اللئيم . حتى إن الرسول قال فى خطبة الوداع :

« واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً وأنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله » :

إن الرجل يمسك المرأة ويقوم على أمرها فى كنفه . فهى تحت رحمته ، ومن ثم وجبت عليه الرحمة بها ولم يجز له الاستبداد بأمرها . أنها أمانة الله فى يده وعنقه . وليس بعد أمانة الله محرجة لمن ألقى السمع وهو شهيد ! .

* * *

استجابة للحياة فى طلاقة وبراءة من التأثم . وتقديس لدوافعها وورود طلق لينابيعها ، مع الحفاظ عليها من أكدار البهيمية المسفة . بذلك يسعد المرء من بنى الإنسان ، وتترقرق فى نفسه نضارة الثقة وأفراح الحياة ، ولا يجد حرجا بين ربه ونفسه . وربه قد خلقه على تلك الفطرة ، ولو شاء لجعله ملكا لا بدن له ولا شهوة .

كان لابد من إصلاح ما بين الإنسان وبين نفسه التى بين جنبيه بعقيدة موفقة بين الدين والدنيا وقد نهض بهذا الإسلام ، وكانت سننه فى الزواج كفاء خطته فى جوانب الهداية البشرية

الفطرية ، لتحرير البشر من الذعر والخزى وعقدة الإثم الشوهاء التي كبلته . ولم تزل تكبل الكثيرين عن انطلاقة الحياة وسوء الفطرة .

***

« فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » .

أجل !

لا يمكن أن تتم لنا فكرة متكاملة عن الزواج ، من غير التعرض لموضوع الطلاق .

والحق أنه يعسر جدا تصور زواج بغير طلاق بصورة من الصور . فالزواج نظام جعل لإسعاد الناس وصلاح أمور حياتهم . ولم يجعل الناس ليكونوا عبيداً أو ضحايا للزواج ، فالزواج الذى تستقيم به حياة الإنسان هو الذى يستحق الإبقاء عليه . أما الزواج الذى به تفسد حياة الإنسان ويتطرق إليها العطب والعفن وصديد الحقد والسخط . فهذا ينبغى أن يبتر قبل أن يقضى على فرصة الحياة الفذة المقدسة ، كما يبتر العضو الفاسد من الجسم حرصا على بقاء الجسم كله مهما كان ذلك العضو المبتور عزيزاً .

« لاضرر ولا ضرار »

قاعدة ليس أحكم منها فى جميع شئون البشر ومعاملاتهم . وهذه هى القاعدة الإسلامية العامة .

إن فرصة الإنسان فى الحياة واحدة ، ففيم نجعلها عذابا مقيما للزوجين تبين أن الوفاق بينهما مستحيل ، وأن حياتهما معاً إهدار لحياتيهما لا محالة ،

إن التطبيق العملى أثبت ذلك ، وصارت أمم الغرب المسيحية تجيز الطلاق فى قانونها بواسطة المحاكم . وذهب بعضها إلى التوسع فى أسباب الطلاق وإجراءاته حتى كأنها مهزلة شكلية .

ثم ما قيمة سعادة يسعد بها الإنسان ، إن كان يدرك ويحس أنه محكوم عليه بهذه السعادة ولا فكاك له منها بأى حال من الأحوال ؟ إنها تكون سعادة جبرية لا اختيار فيها ولا حرية ، وفى يقينى أن الشعور بالحرية والقدرة على اختيار الموقف والمصير هما حجر الأساس فى كل إحساس بالكرامة البشرية . وبغير تلك الكرامة لا قيمة لسعادة مفروضة مهما استطالت .

إن السعادة الحقيقية هى التى يشعر معها الشخص أن الباب أمامه مفتوح ، وأنه لو قدر له أن يملك زمام الاختيار من جديد ، ما اختار إلا ما هو فيه .

إن رخصة الطلاق دواء مر المذاق ، أو جراحة موجعة ،

ولكن من ذا الذى يلغى التداوى كراهة للمرارة ، أو يحرم الجراحات كراهة للآلام والمصائب ؟ . .

لابد من الدواء ومن الجراحة ، ما دمنا نعيش فى عالم كون وفساد ، وصواب وخطأ ، وصحة ومرض ، وحكمة وحماقة . بحيث لا عصمة للبشر . لابد من وسيلة لتدارك الأخطاء ، وإعطاء الفرصة لبنى آدم وبنات حواء كى يبدءوا من جديد بناء سعادتهم فى الدنيا بإقامة أركان أسرات سليمة الصرح ، يعمرها الأمن والمودة والرحمة .

والإسلام يضع رخصة الطلاق فى موضع الدواء الكريه المذاق أو مبضع الجراح ولا زيادة، ولا يكون اللجوء إليه إلا بعد استنفاد الحيلة فى إصلاح ذات البين . فقد جاء فى سورة النساء :

« وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً »

فإذا عجز حكم من أهلها وحكم من أهله عن إصلاح ذات البين ، فقد آن إذن أن يكون « تسريح بإحسان » لأن الإمساك بالمرأة على كراهة بينة لا يرجى لها علاج يكون مضارة لها ، والقاعدة المثلى فى الإسلام أنه « لاضرر ولا ضرار » ولذا جاء فى سورة البقرة :

«وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ» .

وليست المرأة فى جميع الأحوال تحت رحمة الزوج إمسا كا وتسريحا ، إذ يجوز أن تكون عصمة المرأة بيدها إن شرطت ذلك عند عقد الزواج ، فيكون زمام الحياة الزوجية فى عنقها إن شاءت أبقت ، وإن شاءت فصمت .

وهذا هو الحد الذى يقول العقل إنه لا يجور على حقوق السعادة الفردية ، ولا يجعل الزواج أحيانا « عاهة مستديمة » بغير مبرر عقلى ، وبغير مصلحة لكائن من كان .

وقد يحتج محتج بمصلحة الأولاد . وتلك رتب الإسلام فيها أحكام النفقة ، وأحكام الحضانة . ثم ما من أحد يقول إن تربية الأطفال فى كنف أبوين متفاهمين متحابين أمر يستوى وتربيتهما فى كنف أحدهما دون الآخر . ولكن المسألة هى أنه إذا امتنع التفاهم بين الأبوين كان من الخير ألا ينشأ الأولاد فى ذلك الجو الحاقد اللدود ، فذلك أهون الشرين لهم . وهو كذلك أهون الشرين للأبوين . وهى على أى حال آفة لا يقبل عليها عاقل وله عنها مندوحة .

وقد لعن الرسول من يستخدمون رخصة الزواج بغير حقها

الإنسانى والشرعى ، قضـاء لمآرب وضيعة . فجاء فى الحديث الشريف :

« لعن الله كل ذواق مطلاق » و « لعن الله الذواقين والذواقات » و« لعن الله كل مزواج مطلاق » .

والحكمة واضحة جعل الطلاق على ثلاث مراحل . حتى يكون هناك موضع للمراجعة قبل أن تقع الواقعة . فإن سلطان الغضب غشوم . أما السكران والمحرج والمكره فلا يقع منه طلاق .

وأما القول بأن يكون القاضى هو الذى يصـدر الطلاق لأسباب محددة ، مثل الزنا ، فقول فيه وجه غضاضة . لأن التحاكم فى دور القضاء فيه ابتذال للأعراض حتى تغدو مضغة فى الأفواه وعرضة للجاجة والملاحاة .

إن صون الأسرار وأسباب الفراق هنـا أليق ، وفيه من النخوة والبصيرة الشىء الكثير ، حتى لا توصم المرأة بما يعيبها ويعوق زواجها مرة أخرى . وحتى لا يوصم بناتها أو أبناؤها بما تردد فى قاعات المحاكم من مثالبها ، وما قد يصدر حكم القاضى تأسيساً عليه .

ثم كيف لنا بتحديد الأسباب التي تجيز الطلاق بناء على طلب الرجل ؟

إن الزواج صلة حميمة . وقد لا يرى الغريب في المرأة عيبا . ولكن يجد الزوج فيها عيبا كبيراً ، وليس من الضروري أن يكون ذلك العيب جسمياً أو محسوساً . فهناك اختلاف الطباع ، مع كمال الأدب في الزوجين ، بحيث يمتنع بينهما الامتزاج والتفاهم . أما ترى إلى الماء قد يكون من أجود الماء ، وإلى الزيت قد يكون من أجود الزيت ، ثم لا يمكن بينهما امتزاج لاختلاف العدنين ؟ .

كذلك الناس معادن شتى ، قد يطيب كل معدن منها على حدة وليس ضربة لازب أن يمتزج أي معدنين منها على الوجه الذي تستقيم به حياة الزواج . وعندئذ يكون الافتراق خيراً وأولى ، لأن كلا من الزوجين قد يصلح كل الصلاح للزواج بآخر ويحيا حياة سعيدة .

فلا عيب في الدواء إذن ، ولا يطعن في صلاحه أن تطيش به يد أو يشتط لسان . فلا يطعن على الماء أنه قد يشرق به الشارب أو يغرق فيه المغتسل ، ولا يطعن في النار أنها قد تكون

حريقا لا يبقى ولا يذر . فالمعول كله على تقوى الله ثم على حسن البصر ومراعاة الحذر .

***

ولا بد من كلمة أخيرة ، عن جواز زواج المسلم بالكتابية — يهودية كانت أو نصرانية — فى حين يمتنع العكس ، أى زواج الكتابى — يهودياً أو نصرانيا — بمسلمة .

فاذا تذكرنا أن الإســـلام يعترف باليهودية والنصرانية ولا يجحدهما ، عرفنا أنه لاغضاضة على الزوجة الكتابية فى الاحتفاظ بدينها وهى زوج للرجل المسلم . ولكن اليهود والنصارى جرى تقدير رجال الدين عندهم على إنكار الإسلام ، فتكون المسلمة غير آمنة على دينها فى كنف الكتابى . وليست المسألة إذن مسألة عصبية أو تحيز فى كثير أو قليل .

لا قيصر

« أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ! »

عالم مقسوم : شطره لله وشطره لقيصر .

عالم مقسوم : شطره للقلب والروح ، وشطره للحس والبدن .

عالم مقسوم : شطره للدين وشطره للدنيا .

عالم مقسوم : وعلى المرء أن يختار شطراً منه ويتخلى عن شطر . ويجعل بينه وبين الشطر المتروك سداً : سداً من عداء ، أو سداً من إذعان سلبي هو كالعداء سواء بسواء .

تلك دعوة السيد الناصري ، وقد عدل بها عن سنن اليهود فى تعلقهم بالملك ، وحرصهم على الدنيا ، فجعل الدين للقلب ، وجعل العزة للروح . ونادى بتحقير الدنيا ونبذها ، بما فيها من مال ، وحس ، وبدن ، وملك ، وسلطان .

أقيصر بيده مقاليد الدنيا ؟ قل إذن ما الدنيا ، فإنك بعدها لخليق أن تقول وما قيصر ؟! فليذهب قيصر بالدنيا على رحبها ، فأعظم ما فيها عندئذ هين ، وأجل ما يكون من أمرها حقير ،

ماسلمت لك نفسك التى بين جنبيك من شوائب الدنيا ، وزغبُ السلطان وفتنته . فإنك فى حزب الله أجل من قيصر شأناً ، لأنك أحظى منه سكينة نفس وأمنا ، وأهدى منه سبيلا .

ذاك نصيب من نفضوا من الدنيا أيديهم ، بل ونفضوا ترابها من نعالهم ، وسلكوا إلى ربهم مرتقى عسيراً إلا على من يسرهم المولى له ، وهم قلة نادرة بين العالمين .. أما سواد البشر وهم ملايين ومئات الملايين فلاهم قادرون على الانسلاخ من الدنيا التى تضج فى دمائهم قبل أن تضج فيما حولهم من المغريات والمقيمات المقعدات . ولاهم قادرون إزاء هذه الدعوة أن يقبلوا على الدنيا بقلب سليم وعزم مقيم . وإنما هو الفصام . وإنما هو التعلق بين السماء والأرض ، عاجزين عن اليقين ، حيارى مالهم من قرار .

أعز مكان فى هـذه الدنيا إذن دير من الديور أو صومعة مفردة فى مفـازة بيداء ، لايطرقها طارق ، ولا ينعق فيها ناعق ، يخلو فيها العابد لوجه الله . فما الدنيا للإنسان بدار . وإنما هو قد نعاها وجفاها ، وما لبثه فيه إلا ريثما يقبضه ملك الموت فيتم عليه ما اعتزمه منذ أمد بعيد وأوغل فيه من ترك الحياة .

وما كل امرىء بقادر على أن يكون راهبا فى دير أو ناسكا فى صومعة . ولو قدر كل إنسان على ذلك لاضمحلت الحياة وباد

منها بنو آدم وورثها من الوحش وخشاش الأرض الوارثون .

وما كان تقاعس الناس عن هذه الخطة ضعفاً منهم أوعجزاً، بل مطاوعة منهم لفطرة الله القاهرة التى فطرهم عليها حين ركب فى نفوسهم حب الحياة والإقبال عليها غير مختارين . فلو كان مراده سبحانه من الخلق أن يستدبروا الدنيا ويخلعوا الحياة من وجدانهم ومقاصدهم ، ففيم إذن كان خلقه للدنيا وخلقهم فيها ، وخلق محبتها فى قلوبهم فطرة لا حاجة معها إلى تعلم أو اكتساب ؟

وتغلبت فطرة الخلق ،وثار الناس على الانصراف إلى الحياة ، لا الانصراف عنها ، فكان إذن لابد من موقف من قيصر ، وفى يده مقاليد الدنيا .

كان إذن لابد من انشغال الخاطر بأمر السلطة وأسلوب الحكم وليس فى الانصياع السلبي والتسليم للحكومة أى معنى من معانى الاهتمام . فالاهتمام هم ومشاركة وعمل .

وبأى سند من المبدأ أو العقل أو العقيدة تتصدى لذلك الاهتمام بالحكم وأسلوبه ، وقد قسمت الأمر بين ماهو لله وماهو لقيصر ، فجعلت من قيصر فى الدنيا نداً لله فى عالم الغيب والسريرة .

لابد هنا من وقفة حاسمة وضربة قاصمة ؛ حتى يصير الأمر كله لله ، بين دنيا الإنسان وأخراه .

ولهذا أيضا تصدى القرآن، وانبرى الإسلام، فمحا تلك القسمة محواً، ووحد مملكة الحق سفلا وعلواً. فجاء في سورة الأعراف:

قُلْ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

فمن يكون هنا قيصر؟ بل أين هو؟

لا قيصر بعد اليوم!

«بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً».

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ».

رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ».

الله أكبر ولا قيصر بعد اليوم!

وليس قيصر الروم وحده هو الذي نعنيه حين نقول قيصر، بل كل حاكم يسوم الرعية الخسف، ويستمد من غير الحق والعدل والأصول الإلهية سلطانه على الناس.

لا قيصر بعد اليوم بين قوم يؤمنون بأنه لا إله إلا الله «لهُ الخلقُ والأمرُ» «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ». كما جاء في سورة الشورى.

بل إن الرسول؛ وهو الحاكم الأول زمانا ومقاماً وقدوة، كان

عليه أن يشاور المؤمنين فى الأمر . وكذلك كان يفعل ، فقد ورد فى آل عمران :

« وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » .

أتعطى مالله لله وما لقيصر لقيصر ؟ .

ومن ذا يملك من الأمر شيئاً غير الله . . فهذا هو رسوله والحاكم الآمر باسمه يجابه فى آل عمران بأنه :

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ! » ويقال له فى سورة ق :
« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » .

لا جبار على المؤمنين . و « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » كما جاء فى سورة الحجرات .

الحاكم إذن يقوم باسم الأمة . وأى أمة ؟ !

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » كما جاء فى (آل عمران) .

هى أمة إذن وليست ملكا موروثا ، المؤمنون فيها أخوة وليس عليهم جبار . وحكم الله فيهم شورى بينهم وليس حكمه فيهم لأحد يتحدث باسمه أو يحتكر السلطان على الناس أو لجماعة منهم كأنهم أرباب لهم منزلة وسط بين الله والناس :

«قَاتَلَهُم اللّٰهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللّٰهِ» (سورة التوبة) .

لا كهان ولا أحبار . و إنما الأمر كله لكتاب الله وما أخذ به عباده من سُنة ارتضاها لهم .

وهكذا تتسق السرائر والمظاهر ، وتكون حكومة الناس صورة من عقيدتهم . يحكم الحاكم بما أمر الله . وليس له أن يكون على الناس جباراً ، وليس له أن ينفرد بالأمر دونهم . بل إنه لا يكون حاكما إلا بإجماع منهم ، وعندئذ تجب عليهم الطاعة له ما عدل واتقى ، وعليهم أن يعينوه على الأمر بالمشورة والرأى والطاعة .

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » كما جاء فى سورة المائدة .

ففى حدود البر والتقوى والعدل : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » كما جاء فى الحديث الشريف .

للحاكم على الناس الطاعة ، ولهم عليه أن يعدل ، ويتقى الله ، ويشاورهم فى الأمر ، وأن يخفض لهم جناحه . فما هو إلا مؤتمن

برسوله وقد قيل له فى سورة الشعراء : « وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . .

أما إن ضلّ وغوى ، وأعجبته نفسه ، وفتنه سلطانه ، فقد غدر بالبيعة التى له فى أعناق الناس إذ جار عليهم . وما كان لهم أن يعينوه على الأمر . حتى لا يكونوا تعاونوا « على الإثم والعدوان » .

وما هلك الأمم من قبلهم إلا لأنهم « كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ » كما جاء فى سورة المائدة . ولذا كان « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » كما قال صاحب الرسالة فى حديثه الشريف .

الأمر لله جميعاً .. والمؤمنون أمة الله ، فى أعناقهم أمانة دينه وحقه وعدله ، فمن فرط فى شىء من ذلك كان مجترحا لأمر عظيم .

أليس الرسول هو القائل فى كلماته الجوامع ، وحكمه النواصع : « كما تكونوا يولّ عليكم » ؟ !

بلى ! ! فلن يقوم جائر فى قوم طبعوا على العدل . والحق . وكرامة العدل والغيرة على الحق !

بلى ! ولن يقوم عادل فى قوم بهتان وذل . فإنه خليق أن يتعلم من تطامنهم الشموخ ، ومن انقيادهم الصَّيَدَ والاستبداد .

« كما تكونوا يولّ عليكم »

صدق رسول الإسلام ، وماغادره صدق الإلهام ، وهو القائل:

« من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان » .

أجل يارسول الخير والصدق والحق ! فالناس بخير ، وحكومتهم بخير ، ما بقى للحق فى قلوبهم مكان ، وللغيرة على العدل فى قلوبهم الكلمة والسلطان ؛ وما يئس المنكر أن يجد فى قلوبهم الإغضاء والتواطؤ . وما أبوا أن يجعلوا ممن يحكمون بالجور شركاء لله بالاستكانة والإذعان .

صدقت يا رسول الصدق ؛ وصدق بعدد منك الإمام «محمد عبده» حين قال : إن المعول كله على « يقظة الأمة » : وأنه إذا فقدت الأمة شجاعة إيمانها فلا خير لها فى شىء من مظاهر المنعة والحرية والاستقلال

أشورى بلسان ولا قلب ؟ واجتماع ولا صدق ؟

ذلك هو النفاق الكبير .

« وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ » .. ولكن « هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ » ؟ (سورة الزمر) .

وماهو بسؤال وإنما هو إنكار أو استنكار . إذن « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ » (سورة النحل) .

اسألوا أهل الذكر ، من يذكرون الله ويصدقون ويتقون لا الذين يذكرون مصالحهم ومآربهم ويتزلفون ، ومن يبتغون المال والجاه ، « كَىْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » (سورة الحشر)

والأمة بخير ما أوتيت شجاعة الإيمان ، والحكومة بخير ماوجدت ذلك الإيمان لها على رصد ساهر لم ينم ، ذلك « إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » (سورة الرعد)

أجل ! « كما تكونوا يول عليكم » ذلك الحديث الشريف !

« وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً » (الكهف) .

« ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » (الأنفال) .

أيها الناس . أمركم إليكم . وحكومتكم منكم وبكم وإليكم . وكلكم الله إلى إيمانكم . وأراد بكم الخير فلا تريدوا بأنفسكم الضير .

لا قيصر بعد اليوم . بل لله الأمر جميعا . والله قد فوضكم فى أنفسكم ولم يجعل عليكم وكيلا ولا كاهناً ولا جباراً . وإنما

هو إيمانكم وعقلكم وما هلك الأمم من قبلهم إلا لأنهم « كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ . » (سورة المائدة) .

وكأين من مفرط ترك راية العدل تسقط من قلبه اتباعا لسلطان جائر أو طمعا فى قربى لديه ، فقد أشرك بالله وباع دينه واتبع قيصر . . وكفر بأن « الأمر كله لله » . « الذى له ملك السموات والأرض » .

ألا من له أذنان للسمع فليسمع !

فبمثل هذا يكون الملكوت فى الأرض ، وبمثل هذا تكون عمارة الأرض . وبمثل هذا لا يكون المؤمنون بالله أذلاء بإيمانهم أمام الطاغوت مستضعفين فى الأرض . ولا يكون من تجبر وخرج على الله أقوى فيها ممن قال ربى الله .

إن من « قَالُوا رَبُّنَا اللهُ » حقًّا ليسوا كمن قالوا « كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ » .

تلك عقيدة تمت دنيا ودينا . لأن الدنيا فيها مسبار الدين . والإنسان فيها مسدد اليقين . لا يعبد إلا رباً واحداً . حكامه فى الأرض خدامه وصالحوه . هو على نفسه ودينه وكيل مسئول وليس عليه فيها جبار .

« وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

« وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ » ، (سورة القصص) .

تلك هي حياة القوة : قوة اليقين بالله لا قوة الحيوان أو قوة العدوان .

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ . . » (سورة ق) .

مع الناس

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » (سورة الحجرات) .

هذا مسلم به ، ولكن ما القول فى غير المسلمين ؟

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (سورة البقرة)

وما هى علاقة الأمم والشعوب فيما بين بعضها وبعض ؟ .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ . إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » (سورة الحجرات) .

لتعارفوا ..! هذا لباب الصلة بين قوم وقوم وشعب وشعب . إنما هى المعرفة والعرف والمعروف . والأكرم بينهم أكثرهم تقوى . ومن اتقى الله ما ظلم وما بغى ، وما افتات وما اعتدى .

تلك هى شريعة الإخاء ، وهى شريعة الحرية ، التى لا تعرف قيصر ، ولا تعرف عقدة إثم ، ولا تعنو حياة الخلق فيها لغير الله .

أفهى شريعة مساواة ؟ .

إنها لشريعة مساواة . وما هى شريعة تسوية ! هى شريعة عدل . والعدل أن يؤتى كل ذى حق حقه ، وأن يكون التقدير فرعا عن القدر .. كذلك تتفاضل الأقمار ، والأشجار .. أفلا تتفاوت بين الناس الأقدار ؟ .

« وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » (سورة الإسراء).

أجل !

« هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ » (الزمر)

حاشا وكلا ! لا يستوون . وإن كابر الجاهلون ، أو ظلم الظالمون ، وإنما كانوا أنفسهم يظلمون ! بل :

« يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » (المجادلة) .

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » . (الحجرات) .

« وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ » . (الأنعام) .

« وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ » (الأنعام) .

كل إذن ينال على قدر عمله . ولكن بغير بغى ، ذلك أنه يريد

« لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ » .. وبغير حبس الأرزاق أو استغلال للثراء أو إيثار للأموال الخاصة على المصلحة العامة .

« وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (التوبة) .

وسبيل الله منه ما هو حرب عدو بالسلاح ، وما هو دفع بلاء داخلي أو إصلاح أو منفعة عامة للجماعة كافة ... فذلك هو سبيل الله حقاً ، لأن الله غنيٌّ عن العباد ، وإنما يريد وجه الله من نفع الناس وخفف عليهم ويسر لهم أمور معاشهم ، فذلك هو الإحسان وابتغاء سبيل الله « كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » يتداولونه فيما بينهم استئثاراً واحتكاراً ، وتلك قمة العسف بالناس وإذلالهم وإعناتهم في أرزاقهم .

كل في هذه الشريعة ينال على قدر عمله وفضله .

« وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ » (سورة التوبة)

سيرى المؤمنون عملكم ، وسيحاسبونكم عليه ويقدرونه لكم ، كما سيقدره الله .

هو العمل إذن ، ولكن لا للمعاش والمنفعة الذاتية فحسب ،

بل ابتغاء مرضاة الله ومرضاة الناس ومرضاة خير الجماعة . وعلى قدر هذا يكون التقدير .

وهذا أمير المؤمنين ابن الخطاب يذهب فى تقدير العمل النافع البناء لخير الأمة إلى حد ما بعده مزيد :

« والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة » .

ومن قال هذا فقد أراد أن الإسلام الصحيح أو الإيمان الصحيح هو العمل النافع للناس .

« فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » (سورة الرعد) .

صدق الله العظيم ! .. « ما ينفع الناس » ذلكم هو العمل وذلكم هو الفضل . وذلكم هو الفوز العظيم . وليس اكتناز المال ، واقتناء الصروح والضياع ، والاستكثار من الزخرف والمتاع .

وليس البر فى البطالة والسجود . أو حبس الأموال مع الصيام والتهجد ، كلا .

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ

وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ (سورة البقرة) .

وعند قوله «عَلَى حُبِّهِ» وقفة لِمَنْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ا

الله أعلم بحب الناس للمال وهو القائل : «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» .. و لكن الإنسان المؤمن حقا من يؤثر الواجب على هوى نفسه ، ويبذل المال لمن تجب عليه صلتهم ، فإن صلة الخلق قربى إلى خالقهم ، فإنه بذلك « يقرض الله قرضاً حسنا »

اعمل ويسر للناس أن يعملوا ، ولا تحبس المال عن التداول بين أيديهم كافة وابذل مالك على حبك له للأقرباء واليتامى والمساكين والسائلين . ثم عليك بعد ذلك الزكاة « فريضة من الله » .

فريضة لا يراد بها الكسالى . بل من أقعدتهم عن العمل العوائق ، على طلبهم له ودأبهم فى ذلك . فالكسب من العمل هو الأساس . ثم من لم يجد عملا فعلى الجماعة واجب إعالته من مال الزكاة .

دين عمل ، لا دين بطالة واستجداء .

***

ونعود كرة أخرى إلى قوله « على حبه » فإنها باب جانب كبير من العلاقات الإنسانية فى دين الإسلام . وإنا لنجدها حيثما ذكرت الصدقة، سواء بالمال أو بالطعام ، فجاء فى سورة (الإنسان)

« ويُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً » .

وفى (البقرة): «وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى» .

ففى ذلك مغزى الخلق الإسلامى وخاصته المميزة . فليست هذه الفروض من الأمور التنظيمية للمجتمع فحسب وليست من الأعمال التى يبتغى بهـــا وجه المصلحة الاجتماعية ورفق المعيشة فى الأمة وصلاح الأحوال بموجب عقلى . بل هو عمل خلقى فى المقام الأول يبتغى به وجه العاطفة الخلقية : وجه الواجب .

والفرق بين فعل عقلى وفعل خلقى فى هذا المقام ، هو الفرق بين ما هو بوحى من العقيدة وما هو بوحى من المصلحة ، ضاق مداها أو اتسع .

فإننا نرى اليوم أمماً بلغ عندها الفهم العقلى والتنظيم الاجتماعى المادى غاية مداه ، ورفرف اليسر على أعضاء الجماعة . ولكنهم لايحسون سعادة نفسية بذلك الرخاء .

لمـــاذا ؟

وهنا ترتسم علامة استفهام ضخمة ، لأن هذا هو الفيصل

بين الروح والمادة ، بين العقيدة والعقل ، بين العاطفة والمصلحة . بل بين الله والإنسان !

إن التنظيم الاجتماعى العقلى أو المادى يستوحى تحسين حال المجموع بعامة ، تحسينا ينعكس على كل فرد فى ذلك المجموع .

ولكن السؤال الكبير هو أن هذا التحسن أو التقدم أو اليسر أو الرخاء ، يصيب ماذا ؟ أو يصيب من ؟

إن التقدم المادى تحسين لظروف الآدمى ، وليس تحسيناً لذات الآدمى . وتقدم لأحوال الإنسان ، وليس تقدما يصيب ذات الإنسان ووجدانه . إنه رقى فى الكمية ، وليس رقياً فى كيفية الإنسان أو وجدانه أو قيمته من حيث هو ذات واعية شاعرة ناطقة .

إن الإنسان المتقدم بمادياته وأحوال معاشه فحسب ليعجزه أن يجد لذلك طعما وجدانيا عميقاً ، او رقيا فى قيمته ونهوضاً بمعنى إنسانيته ، إنه كالبغل المزركش ولا زيادة

أما الإنسان الذى يحس ارتباطاً بين قيمته وبين قيم الكون الكبرى . وبين أفعاله ومقاييس الأبد . وبين وجدانه وحقيقة الوجود . فالرضوان الذى يشعر به من أفعاله الأخلاقية وحسناته الإيمانية رضوان إنسانى لاحيوانى . روحى لاحسى . . بحيث يفيض عليه من الأبدية ضوء ينير له مزيدا من الارتقاء فى

الرضوان ، والسعادة ، يمتد إلى ماوراء القبر .

وهذا هو الفيصل الأكبر بين سعادة المؤمن ورفاهية المادى. بين يقين الروح وضياع المادة . بين حس الأخلاق وحساب المصلحة الاجتماعية مهما امتد أفقها واتسع محيطها وعم رخاؤها

وهذه هى أخلاق الإسلام :

بذل المال والطعام على حبهما ، ابتغاء لما فى الإيثار من شعور بالنجدة ، وقياما بالواجب الإنسانى والفرض الإلهى ، وطموحاً إلى نعيم لا يزول بعدئذ لمن عمل صالحاً .

أخلاق أساسها الشعور بالواجب ، والقربى إلى الله فى كمال صفاته وآلائه الحسنى ، « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى » .

وأى مثل أعلى يلتمسه الإنسان ويخطئه فى أسماء الله الحسنى ؟ إنه الرحمن ، الرحيم ، العليم ، الخبير ، اللطيف ، البصير ، السميع ، المجيب ، الودود . . إلى آخر تلك الآلاء التى جلاها لعباده حثاً لهم لا إعجازاً ! « لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا » . « فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ».

إن المصدر السماوى للأخلاق فى العقيدة الدينية هو الحافز الدائم للمرء على الارتفاع بنفسه وسلوكه وعواطفه فوق طبيعته الأرضية ورغائبه الحسية وأنانيته الحيوانية .

« وابتغاء وجه الله » .

هذا هو الحافز الأكبر على مكارم الأخلاق ، وبعد هذا فلا حرج على من يطلب مصلحة المجتمع لسبب عقلى ، ومن ينظمها لهدف مادى .. فالإسلام لايلغى العقل ولا يجحد المادة . ولكنه يضعهما فى حدودهماولا يعدو بهما قدرهما الحق . فهما بغيرالقيمة الروحية لايجديان الإنسان فتيلا . فيكون كمن ختم على سمعه وبصره .

« فَإِنَّها لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » . (الحج)

إن التقدم المادى بغير السمو الروحى عمًى مطبق . وقعود عن التحليق وارتباط وخيم بتراب الأرض ، ولو جعلته تبراً أبريزاً

وبعد هذا السمو الروحى ، فمصالح الناس المرسلة أهل للرعاية ، وهم أعلم بشئون دنياهم .

وليس التنظيم الإسلامى لأمور الدنيا بنظام مقفل جامد . . بل هو التنظيم الجوهرى الذى لبابه قول صاحب الرسالة الكريم :

« لا ضرر ولاضِرَارَ » .

« وأنتم أعلم بأمور دنياكم » .

فما لم يرد فيه نص بتحريم لسبب من أسباب العقيدة الروحية

فلا بأس على الناس فيه ، مالم يكن فيه ضرر لصاحبه أو إضرار بسواه .

خلق كريم وإيثار ونجدة ابتغاء وجه الله . واتقاء لغضبه فى معاملة الناس،وإصلاح لحال الدنيامن غير إضراربالناس، وحرص على مصالح الجماعة . وتعاون على البر والتقوى وابتغاء الرزق بالعمل . وكفالة المتعطل والعاجز عن الكسب بالزكاة . وترفع عن الترف والإسراف فى البذخ حتى لا تستنيم الروح لشهوات الجسد ،فذلك هو النموذج الكامل للإنسان . يحب إخوته فى الله ويوفق بين دنياه وأخراه .. ويقهر شرة الحس فى مجتمعاته لا فى صومعة بفلاة .

إِنَّ ذَٰلِكَ لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

مع الله

مع الله فى الأرض . وابتغاء لوجهه فيما تأخذ من الدنيا وما تدع وفيما يعرض لك من المنافع والطيبات . وفيما يتصل بينك وبين الناس من الأسباب .

تلك دعوة الإسلام .

« وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » .

أجـــل !

ولا تجعلن الدنيا تلهيك عن ذكر الله . اذكره فى كل حين . ولـكن عليك فرض من ذكره مفروض ، فى أوقات معلومة من الليل والنهار ، حتى لا تسهو عن ذكره . . وباب النوافل مفتوح بعد ذلك لمن شاء مزيداً من الإحسان .

« أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ! إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً . وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ، عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً » . (سورة الإسراء) .

«فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ » . (سورة الروم) .

« وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ، لَعَلَّكَ تَرْضَى » (سورة طه) .

« وَأَقِمِ الصَّلَاةَ . إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ » (سورة العنكبوت) .

***

هذا الركن من الدين لا يسمح للمرء أن ينسى ذكر ربه طويلا ، حتى يرده السجود إلى الخشوع والتقوى ، فيخرج إلى الناس والكدح والسعي فى طلب الرزق وبه أثارة من الخشية تنهاه عن البغي والمنكر . ولا خير فى صلاة بذهن شارد ، وقلب بارد ، لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر :

«قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ » (سورة المؤمنون) .

« وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ » (سورة البقرة).

« فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ . . » (الماعون) .

***

نظام واحد يمسك الدين والدنيا ، ويسلك المعاش والعبادة والمعاد ، ولهذا قلما يرد ذكر الصلاة فى القرآن من غير آثارها العملية ، من اتقاء الله فى الضعفاء ، والإحسان إلى ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وأداء الزكاة للمعوزين ، والتعفف عن الفسوق ، فجاء فى سورة (المؤمنون) .

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ » .

وجاء فى سورة (الذاريات) :

« كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » .

وجاء فى سورة (المزمل) .

« وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً . وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً »

وليست أى صدقة تمد إحسانا . كلا !

«قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى واللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ . يا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لَاتُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالمَنِّ وَالْأَذَى كَالذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ» (سورة البقرة) .

وبئس الصدقة ما كان رئاء الناس . وبئس الصلاة ما كانت رئاء الناس فلا تجعله رحيما عفيفاً :

«أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ؟ فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ . فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ!» (سورة الماعون) .

وصلاة هذا شأنها ، تتكرر فى اليوم جملة مرات ، لايلهى عنها بيع أو شراء - إنها إذن لسبب قوى بين الإنسان والله ، ومن يفعل ذلك . «فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا» (البقرة) .

ولكن أين تكون تلك الصلاة ؟ هل لابد فيها من وساطة رجال الدين ؟

هنا تبرز خصوصية الإسلام فى أمر الصلاة التى تقف المرء بين يدى الله جملة مرات فى كل يوم .

كل مكان فى أرض الله الطاهرة يصلح مسجداً ومحراباً .

لاهيا كل بعد اليوم ! ولا كهانة بعد اليوم ! ولا وسطاء بين الله والإنسان بعد اليوم ! ولا وصاية على ضمائر الناس ! فكلهم أمام الرحمن سواء . والصلة بينهم وبين ربهم صلة مباشرة لا أمت فيها ولا التواء . فمن شاء اتخذ لنفسه سبيلا إلى ربه « والله سميع عليم » . وليس من حق كائن من كان أن يتدخل بين المرء وربه ، أو يدعى لنفسه القوامة على ضميره وعقيدته .

وها هنا لابد لى من وقفة .

إن السيد المسيح أعلن الحرب على مظهريات اليهودية ، وهدم شكليات الطقوس . ونادى بعبادة الضمير التقى . وقال لمن يريد الصلاة أن يدخل مخدعه ويغلقه عليه ليصلى .

إنى أعتقد أن المسيح نقض الكهانة ، لأنها تناقض عبادة الضمير والصلة الخالصة المباشرة بين الإنسان والله . . وأعتقد أن كل ما التصق بالمسيحية بعد ذلك كان من عمل تابعيه . أما هو فلم يرد فى نصوص أقواله ما يبرر قيام الكهنوت .

إن من يطلب من الناس أن ينادوا الله بقولهم « يا أبانا الذى فى السماء » ، كيف يمكن أن يجيز وسطاء بين الأب والأبناء ؟

إن قلب المؤمن هو هيكل الله الحق . ولا مكان فى هذا الهيكل إلا لضمير صاحبه وإيمانه .

برح الخفاء

لم يبق شك فى أن رسالة الإسلام جاءت مناسبة لطور البشرية الطبيعى .

جاءت رسالة الإسلام متلافية أوجه الغموض فى العقيدة الإلهية وأوجه العسر والعنت وأوجه إغفال الدنيا وفطرة البدن والروح فى كيان واحد .

ثم مع هذا لم يقفل باب الاجتهاد فى السمو الروحى . فما كانت دعوة تهوين أو إسفاف . بل دعوة اتساع فى الأفق وشمول فى النظر . يأخذ كل إنسان منها على قدر طاقته . ثم هو متروك فى أمر طاقته لضميره وسريرته ، أن يقول صادقا :

« رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا » (سورة البقرة) .

« لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا »(سورة البقرة) .

فالمعول عليه السريرة والنية والصدق . فهذا الدين — كما قال

رسوله — « يسر لا عسر » وهو دين متين « فأوغل فيه برفق » .

لا زيف فى هذا الدين إذن . وهو مُلَبٍّ حاجة البشر كافة ، سوادهم وخاصتهم . لا مسخ فيه ولا إسفاف ، ولا عسر فيه ولا إجحاف . وإنما هو « صراط مستقيم » لا إعنات فيه للفكر السليم والبداهة السديدة .

برح الخلفاء . وأثبت هذا الدين نفسه دين هداية بالحق . وارتفاع بقيمة العقل عن الانسياق وراء المعميات والخوارق الغريبة عن طبيعة معدنه فى الاقتناع والتصديق . ورد اعتبار البدن بوصفه هيكل الروح ، فهو ليس مصدر خزى لصاحبه . ولا هو بالرجس وإنما الرجس فى مقارفة المحرمات المحددة شرعاً . وفى الإضرار بالنفس أو الغير . وبغلبة الشهوة على صاحبها . فصاحب الرسالة هو القائل .

« إن لبدنك عليك حقا » .

والقرآن يكرر ذلك المعنى فى أكثر من موضع :

« يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً (البقرة) .

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ » (البقرة) .

« لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ » (المائدة) .

« يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا » (الأعراف) .

هو دين يسع الناس كافة ، ويهديهم كافة ، ولكن حذار أن يظن ظان أن دعوة الإسلام اشتهرت الناس بتملق غرائزهم ، أو رشوة منافعهم وأثرتهم . أو إباحة الأهواء والشهوات : فإن ذلك يكون ضلالا كبيراً ، وجنوحاً إلى عكس مضمون تلك الدعوة .

إن الرسالة الإسلامية جاءت تنظيما لحياة الناس ، بحيث يخرجون عن دائرة المنفعة الذاتية والأنانية بكل توابعها من الشهوة أو الهوى ، والقسوة ، والظلم ، والإباحية .

فرضت على المرء أن يعمل ، وجعلت قيمته وشرفه معلقين بعمله ، وسيرى عمله الله ورسوله والمؤمنون .

وفرضت الزكاة على الأموال ، وجعلت للفقير في عنق الغنى حقاً مفروضاً هو الصدقة .

وفرضت الصفح والعفو ، ومحت الثأر والشحناء .

وفرضت الصلاة والصيام ، وحرمت البذخ والسرف .

وفرضت التواضع ، وحرمت الخيلاء .

وأحلت الزواج ، وحرمت الزنا .

وضيقت زواج الجاهلية فجعلت أقصاه أربعا ، وحضت على زواج الواحدة .

وفرضت الأخوّة والمساواة . وألغت العصبية والاستعلاء بالنسب والجاه .

وحرمت الخمر ، وكل ما يخمر العقل فهو خمر ، فالخمار هو الغطاء . . وكل غطاء للعقل حرام .

وحرمت الفسوق والتجبر والميسر والعدوان على حقوق الناس وأعراضهم .

فلئن قيل : إن الإسلام اعترف بحق البدن ، فإنما يقال ذلك بوجه معين ، أنه لم يغفل عن وجود البدن وفطرة الله البشر ذوى أبدان ، لا ملائكة من نور . فهو دين حصيف شامل . لا يرهق الناس من أمرهم عسراً . . ولكنه إذ يمتنع عن الغلو فى إنكار الجسد ، لا يغلو فى إطلاق العنان له ، بل إنه يلزمه حدوده ، ويجعل الزمام فى يد العقل كى يسلك صاحبه مسلكا طاهراً ، يتمتع بالطيبات مما أحل الله ، شاكراً له نعمه ، مبتغياً رضوانه .. فذلك البدن إذن أشبه ما يكون بمطية طيبة أحرى براكبها أن يرتحلها إلى كل ما هو طيب ، ويتنكب بها كل ما هو خبيث من المحارم .

فإذا نظرنا إلى الرسالة الإسلامية وجدناها أبعد ما تكون عن شبهة تملق الشهوات ، أو إباحة الأهواء . ورشوة المنافع واللبانات .

كان العرب فى الجاهلية أهل إباحة ، لا وازع ولا رادع . قصفهم مجون . ولهوهم فجور ، وحياتهم عدوان ، وكسبهم سحت ، وليلهم خمر وميسر . فكيف يقال عن دين اقتلع جذور هذا كله ووضع الحدود لكل وجه من وجوه النشاط البشرى ، أنه استدرج هؤلاء بما تملقه من غرائزهم وما أباح لهم من مباذلهم ؟

إن لم يكن هذا هو التنظيم والتضييق والسمو ، فماذا عساه يكون ؟!

ما فعل الإسلام إلا أن اعترف للمرء بحق الحياة التى براه الله فيها وركب فيه فطرة حبها وطلبها ، فاستطاع الإنسان أن يعيش غير مضطرب أو متأثم من طبيعته السوية ، وقد رسمت له حدود تتفق وواقع فطرته ، وتسمح له بالتسامى ما استطاع . ومن لم يستطع فلا تثريب عليه . وفى رحمة الله الذى خلقه وعرف ضعفه متسع .

ومن سمى هذا التوسيع لباب رحمة الله ، والاعتراف بفطرة الله التى فطر عليها بنى آدم ، إباحة أو تملقاً للشهوات ! فإنه إذن لمغالط أو مخالط . أترى إن قيل للناس : لا تتنفسوا . أيكون ذلك معقولا مقبولا ، وتكون إباحة التنفس تملقاً لأهوائهم أو رغباتهم ؟ .

بل ذلك هو تقدير الاستطاعة وعدم قطع الناس عن رحمة الله فلا تكون لهم حجة بعد فى تعدى حدود العقيدة وقد نظرت إلى حقيقة طباعهم بغير إعنات .. وهذا هو القسطاس الحق فى تنظيم أمور الناس من غير تحيف بحيث يطيق كل منهم تسويه العقل والروح على نوازع نفسه . ومن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ، وما جاء الرسل بالأديان بلاء للناس بل رحمة .

برح الخفاء . والرسالة رسالة حق .

بقى إذن أمر الرسول . وهل هو رسول صدق . فإن « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ، فهل كان الرسول أهلا لهذه الرسالة ، جديراً بشرفها العظيم وقدرها الكريم ؟ .

ذلكم هو موضوع هذه الصفحات .

شجاعة الإيمان

إن أول مقياس يقاس به صدق صاحب رسالة هو مبلغ إيمانه بها متى امتحنته الخطوب ولقى فى سبيلها العنت والبلاء والاضطهاد .

إن الرسالة التى تسير بصاحبها على مهاد من الود ، ويكون هدفها الغنم له أو لذويه لا تدل على إيمان ، بل على وصولية وطمع أو طموح .

وأيا كان المقياس الذى تقاس به دعوة الإسلام ، فلن نجد فيها دليلا واحداً ولا شبه دليل على أن الغرض منها خدمة شخصه من قريب أو بعيد .

كان موفور الرزق موسعاً عليه ، فبدل من ذلك ضيقاً وشظفاً .

كان آمناً فى سربه ، فبدل من ذلك قلقاً ومطاردة وارتياعا .

كان موفور الكرامة والمكانة بين قومه ، بالنسب الرفيع ، والحسب المنيع ، فبدل من ذلك إهانة وتحقيراً وازدراء .

كان وحيداً أعزل لا أمل له فى نصرة أحد على قومه ، وهم أئمة الشرك ، وحراس الكفر ، وأولياء عاصمته المستفيدون منه .

أما أهله فما كانت هذه الرسالة بأنفع لهم . وأوذوا بسببها فى أرزاقهم ، وفى أعمالهم ، وفى أشخاصهم . وتعرضوا لما تعرض له من التهلكة أكثر من مرة .

وما كان مضمون الدعوة حين يكتب لها النجاح ليضفى عليهم شيئاً من المنافع . فهذا الدين لا يجعل لرسوله مرتبة فوق مراتب البشر ، أو حظاً من نعيم الدنيا ومتاعها فوق حظوظ سائر الناس فضلا عن آله .

كلا ! فهذه نبوة وليست ملكا . ولا وراثة فى النبوة .

كلا ! بل هذا الدين يمحو ما كان لقبيلة هذا الرسول قبل ذلك من سيادة وامتياز وطيد الأركان . فالناس فى هذا الدين سواسية كأسنان المشط . . وهذا الرسول هو القائل : إنه لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى . . وإن عصبية الجاهلية موضوعة !

دعوة لا تحمل لصاحبها بموازين الدنيا جميعاً إلا الخسران

ولا تحمل لقومه ـ على افتراض نجاحها وظفرها ـ إلا ذهاب الرئاسة وضياع الجاه .

بل وحين كتب لهذه الدعوة الظهور وتم الفتح المبين ، ولم يظفر صاحبها بغنم ، ولم يكن حظه من إقبال الدنيا إلا أقل من حظ عامة جنده وفقراء رعيته . لم يجعل لفئة من الناس فضلا على فئة . . بل صار الأمر كله للمؤمنين كافة .

لا منفعة إذن ولا شبه منفعة لصاحب هذه الرسالة من بداية دعوته حتى المنتهى . ولا تسخير للدعوة لخدمة مآرب ذاتية أو أهواء حزب من الناس أو فئة . وصح إذن أنه ما كان ينطق عن الهوى وأنه « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى » .

هي من هذا الوجه دعوة مبدأ وإيمان ، وليست مطية هوى .

هذا الإيمان بماذا يقاس إن لم يكن مقياسه الثبات عليه في أشد الظروف حلكة وأدعاها لليأس ؟ وإن لم يكن مقياسه الصبر في سبيله على المكاره ؟ .

وإنها لمكاره من كل نوع . لعل المعنوى منها أقسى من المادى . ولعل حرج النفس فيها أعتى من الضرب والإيذاء البدنى بالغاً ما بلغ من العنف .

لم يساوم هذا الرسول ولم يقبل المساومة لحظة واحدة فى موضوع رسالته ، على كثرة فنون المساومات ، واشتداد المحن .

وهناك موقف مشهور جداً من تلك المواقف . هو موقفه من عمه أبى طالب حين قال له : إن قريشاً تشدد عليه النكير بسبب مايبسطه عليه من حمايته . وإنه ـ على كبر سنه ـ مهدد باجتماعهم على مقاطعته وعداوته . وقد قالوا له :

— إنا والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

وتقدم عمه إليه بقوله :

— فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق .

فهذا عمه ، حصنه الأوحد وحاميه يوشك أن يتخلى عنه . ولن يكون بعد ذلك إلا الهلاك له هلاكا مؤكداً .

إما هذا وإما أن يحرج عمه ويبقى على حمايته له ، فيتعرض معه للهلاك فى تلك المعركة التى لا تكافؤ فيها .

وعمه . . من عمه ؟ .

إنه الذى كفل وربى بعد هلاك الجد ذلك الفتى اليتيم . إنه

الذى دلل وأعز هذا اليتيم . وأردفه على راحلته حين تعلق به صغيراً وقد تجهز للسفر إلى الشام ، فلم تطاوعه نفسه أن يفارقه باكيا ، وصحبه حيث ذهب .

ومحمد أوفى الناس بالمعروف ، وأحفظهم للوداد ، وأبرهم وأقسطهم . أى حرج شعر به أمام ذلك الرجاء ؟ أى تورط ؟ أى امتحان لخلال البر وعرفان الجميل والنخوة ؟ .

لو كان شيء من الأشياء ثانياً محمداً عن إيمانه ، لكان هذا الحرج ، ولو كان الأمر بيده بأى صورة من الصور لما صمد لهذا الامتحان . ولو كانت قوة لتزعزعه عما تجرد له لكان هذا التوسل من أبى طالب .

إن الامتحان النفسى فى هذا المقام ، والإكراه المعنوى والضغط الأدبى لهى أعنف ألف مرة من اللطمات والبصقات التى كيلت له من سفهاء القوم .

وأطرق محمد .. وما أحسب هلاكه كان أهول لديه من تخييب رجاء عمه وكافله . فحق لمن فى مثل نخوته وبره أن يطرق ويهتم . وهو يتعرض لتهمة العقوق .

ثم كانت الكلمة التى لا تنطق إلا عن منتهى شجاعة الإيمان ورسوخ اليقين بما هو بسبيله .

— ياعم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته . .

من كابر في صدق هذا الإيمان ، فهو مسكين لا يميز الإيمان من الدجل ، ولا الصدق من الهزل .

ولم يخذل العم الشهم الكريم ابن أخيه ، بل ثابر على نصره ومنعه وقال له مأخوذاً بذلك الإيمان :

— إذهب يابن أخى فقل ما أحببت . فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه أبداً ! . .

واحتمل آله العنت بسبب ذلك . . فكان فضل أبي طالب مضاعفاً بعد هذا اليوم الفاصل .

ثم يحضر الموت هذا العم النبيل الذى غمره بحنانه وحمايته وإحسانه صغيراً وكبيراً ، حدثا وكهلا مطارداً مبغوضاً . . فإذا بالرسول يطالبه بأن ينطق بالشهادة كى يستحل الشفاعة له بها يوم القيامة . . فيأبى على أبي طالب حفاظاً وخشية أن يرمى بشبهة الجبن أمام الموت والضعف أمام وعيد يوم الحساب .

وتحشرج الروح ، ويميل على أبي طالب أخوه العباس يسمع مايهمس به فى لحظته الأخيرة ، ثم يقول العباس لابن أخيه : إن المحتضر نطق بالشهادة وهو فى الرمق الأخير . .

وعلى شدة حبه لعمه الراحل ، وتعلقه به ، ورغبته فى نجاة نفسه لقاء ما أحسن إليه ونافح عنه ، لم تتحرك فيه خالجة ، وقال بجمود الراسخ : إنه لم يسمع .

وغيره فى مثل هذا الموقف كان حريا أن يبادر إلى التصديق على عهدة الراوى ، وهو عمه العباس . كى يجد فى ذلك عزاء وسلوانا وراحة إلى أن عمه وكافله المحبوب لم يمت كافراً وليس مصيره جهنم ذات السعير .

ولكن شجاعة الإيمان تأبى عليه هذه الراحة التى كان وزرها على سواه . فحيثما تعرض الأمر لدعوته وعقيدته ، فلا محل لمجاملة ، مهما قويت بواعثها من كرائم الخلال .

أهذا شأن من يملك من الأمر شيئاً ؟ أهذا شأن من لاتسيطر عليه قوة قاهرة ، أقوى من مراده وهوى نفسه ، هو إزاءها العبد المأمور ؟ . .

لذلك ، هو الرسول الأمين حقاً ، الذى يقول له ربه « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » .

* * *

لامساومة ! وكيف يساوم من لايملك من الأمر شيئا ؟ .

هاهو ذا يدعو القبائل فى موسم الحج إلى ربه ، يقف بمنازلهم . فمنهم من يعرض ومنهم من يسخر . وها هو يقف يوما على منازل بنى عامر ، ويتكلم فى يقين وبسلطان . . وأى سلطان أعلى من سلطان اليقين بالعزيز ذى الجلال ؟ .

ويبهر كبير القوم بما سمع ، ويراها فرصة يجدر به أن يهتبلها عسى أن تكون لقومه بذلك الداعى رئاسة أو يحدث لهم ذكرا وجاها . فيقول له :

— أى محمد ! أفإن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ .

مساومة معقولة لدى امرئ يعرف المساومة فإنه يطلب إلى قوم أن يتبعوه ويمنعوه حتى يبلغ أمانة الله ويؤمن به الناس كافة وفى ذلك من البلاء والمشقة ما فيه . بل فيه من الهلاك للأنفس والأموال ما فيه . وفى منطق المساومة وتبادل المنافع لابد من مقابل لكل خدمة تؤدى أو منفعة ترجى .. فليكن الأمر إذن كما يطالب به شيخ بنى عامر . فهو عرض معقول ، يصلح أساساً على كل حال للمدارسة بين الطرفين .

ولكن محمداً لايساوم .

ولكن محمداً مأمور ليس له من الأمر شىء .

ولكن محمداً لا يرى الإيمان بالله منّة للمؤمنين على الله ورسوله بل منة لله على المؤمنين . هداهم من ضلال . ونصر الله حق عليهم كفاه هذا الفضل العميم . وشتان بين هذا المنطق ومنطق المساومة .

وكان محمد وحيداً لا يكاد يجد لدعوته سميعاً .

وكان محمد مطارداً لا يجد مانعاً ولا نصيراً .

ولكن محمداً لم يقبل المساومة فى أمر هو من شأن الله وحده . وهو لا يملك من الأمر شيئاً .

— الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء !

ما هذا قول مغامر مساوم مداور . هذا قول لا يصدر إلا عن شجاعة إيمان نادر . سلطان إيمانه عليه قاهر ، لا حيلة له فيما يأخذ وفيما يدع .

***

وأكثر من هذا لا يهتز له إيمان محمد .

هؤلاء ذؤابة قومه قريش يجتمعون عند الكعبة ويرسلون إليه . ويقول قائلهم له :

— يا محمد ! إنا واللات ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك . فإن كنت إنما جئت بهذا

الحدث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت إنما تريد به الشرف فينا فنحن نسودك علينا . وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا . وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك : بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .

هو إذن ملك حاضر بغير عناء أو جهاد أو انتظار . وثراء ماثل لاضرورة معه لجهد أو اصطبار . فما يبتغى مغامر نفعى سوى ذاك ؟ .

وأى مساومة هذه ؟ إنها أشبه بالتسليم المطلق من كل قيد . إلا أن يدع ماهو بسبيله من الدعوة .

ودون هذا خرط القتاد !

ودون هذا شجاعة الإيمان التي ما كان عن سواها يصدر جوابه على تلك المساومة التى يسيل لها اللعاب :

— ما بى ما تقولون ! ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم . ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتاباً . وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم . فإن تقبلوا منى ما جئتكم

به فهو حظكم من الدنيا والآخرة . وإن تردوه عليّ ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم !

كلام العبد المأمور الذى ليس له من الأمر شىء . كلام الرسول المكلف بالبلاغ الأمين ، ولا مأرب له من وراء دعوته ، وقد استنفدت المآرب فى ذلك العرض الذى شمل كل شىء ، من الجاه العريض إلى الملك المضوض .

ولكن معاذ الإيمان ، وشجاعة الإيمان . ما الملك ؟ وما الجاه ؟ وما الثراء ؟ .

هباء هى ، أو أهون من الهباء .

وفى أى وقت يقول هذا ؟ وفى ثبات من لايشعر أنه يفعل أمراً خارقاً أو يهم بمقاومة إغراء تحشد الحماسة من جوانب النفس لملاقاته ؟ .

فى وقت عزّ فيه النصير ، وطارده السفهاء بالأذى فى قريش وغير قريش أينما ذهب يقوم بأمانة الدعوة . حتى بلغ منه الضيق مبلغه وحزبه الأمر ، وصاح ذات يوم بصوت يخنقه البكاء :

— اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين وأنت ربى ! إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدوّ ملكته أمرى ؟ إن

لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ! ولـكن عافيتك هى أوسع لى !
أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر
الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل علىّ سخطك .
لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك !

أى شىء هذا إن لم يكن غاية الغايات من شجاعة الإيمان ؟ .

ضرب وشج وتحقير فى كل مكان : حتى يصرخ هذه الصرخة من قلب صديع ، ثم لا يعنيه من ذلك شىء ، سوى خوفه أن يكون بالله عليه غضب ! فإلا يكن ربه غاضباً عليه ، فهو لا يبالى ! . . ثم يعنى بانقلاب الحال إلى ملك مؤثل وثراء مذلل ، فلا يفـكر فى شىء من ذلك طرفة عين ، ويعرض عنه بغير مبالاة.

فإلا يكن هذا هو الصدق الصادق ، فقد ارتـكست مقاييس تجعل من صاحب هذه المواقف ومثيلاتها مساوما مغامراً طالب مغنم .

وسلام على المنصفين المقسطين الذين لا يجرمنهم شنآن قوم على ألا يعدلوا .

وسلام على الصادقين .

لا ادّعاء

من لم يكن صادقاً فى دعواه ، فهو دعى لا يسلم من أعراض الادعاء مهما تصنع الصدق .

وتجتمع أعراض الادعاء فى انتحال صفة أو قدرة أو حق ليس للمرء حقيقته .

وما كذلك كان أبو القاسم .

لم يزعم لنفسه قدرة أو صفة أو حقاً يستعلى بها على أحد ، أو يرتب لنفسه بها سلطاناً أو تقديماً .

ولو كان القرآن من صنعه ماحرص على أن يكون فيه كآحاد الناس لايزيد . ليس عليه إلا البلاغ .

عليه البلاغ . ولـكن أى شىء له ؟

لاشىء . ثم لاشىء . ثم لاشىء .

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » .

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ » .

« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » :

امرؤ عليه وليس له .

أين من ذلك دعوى الأدعياء ؟ .

ولما طولب بالمعجزات لم يتوجه إلى ربه يسأله أن يؤيده بخارقة بل خوطب مأموراً بما يقول لهؤلاء :

« قُلْ : لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرا إلا مَاشَاءَ اللهُ . وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَ سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ . إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (الأعراف).

« قُلْ . لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ . إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ » (الأنعام)

لادعوى ولا ادعاء : ولا مظاهرة من الخوارق والبوارق . وإنما الهداية إلى ما تطمئن به النفس ويستريح إليه العقل :

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ؟ » (الأنعام)

« أفلا تتفكرون ؟ » .

بحجة الفكر الناشط من عقاله تقدم أبو القاسم إلى الناس ، ولا حجة له سوى هذا . فما هو بصاحب معجزات . ولا هو يمنى الناس بخزائن لا يملك مفاتيحها إلا الله . ولا يمدهم بدفع السوء

عنهم وهو غير قادر على دفع السوء عن نفسه . ومن لم ينفعه عقله فى الاهتداء إلى سواء السبيل وتمييز الحق من الضلال فهو أعمى . « وَمَا يَسْتَوِى الأَعْمَى والْبَصِيرُ » : وليس بنافعه إذن خوارق المعجزات .

* * *

بل إن هذا الرسول حينما وقعت له تجربة الوحى أول مرة وهو يتحنث فى غار حراء صائماً قائماً يقلب طرفه بين الأرض والسماء . جياش النفس منقطعاً عن أهل مكة بما هم منصرفون إليه من الدنيويات والقصف والمتاع الحسى الغليظ ، لم يأخذ هذه التجربة مأخذ اليقين ، ولم يخرج إلى زوجه خروج الواثق بها المتلهف على شرفها . بل ظن ذلك فى أول مرة رؤى من الجن . وارتعدت فرائصه من الروع وقد ثقلت على وجدانه تلك التجربة الفذة الخارقة ، ودخل على خديجة وكأن به رجفة الحمى فدثرته ونام مطمئناً إلى أمومتها الحانية بعد أن وعدته بالرجوع إلى قريبها ورقة بن نوفل وهو من نصارى العرب .

واستيقظ محمد فصحبها إلى هناك وقص على الشيخ الكتابى ماوقع له فى الغار من الرؤية والسماع . . وأطرق الشيخ هنيهة ثم قال لقريبته خديجة :

— قدوس قدوس ! والذى نفس ورقة بيده لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى .

واطمأن محمد قليلا ، ثم تراءى له الوحى وهو فى سِنَةٍ من النوم فثقل تنفسه وتفصد جبينه بالعرق ونزلت عليه (سورة المدثر) :

« يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » .

ونهض محمد مرتجفاً مأخوذاً . ورأت خديجة ما به من روع فدعته إلى النوم ليصيب شيئاً من الراحة فقال :

— انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة . فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس . وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته . فمن ذا أدعو ؟ ومن ذا يستجيب لى ؟

وليس هذا حال دعى يلفق دعوى للناس لا يؤمن بها . ليس هذا حال المتصدى لأمر عن هوى . ليس هذا حال ملفق دجال بل هذا حال رجل متحرج لا يريد أن يصدق ما تراءى له إلا ببرهان ويقين . فقد فوجىء بما وقع له وتولاه الروع والفزع .

هو إذن تكليف لا تأليف .

وهو تكليف مرّ شاق : ألست ترى هذا المرفه الناعم فى ظل زوجة هى أشبه له بالأم ، يقول لها فى حسرة وأسى :

— انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة ! ؟ .

ألست ترى هذا المتحسر الروع حائراً لا يدرى ما يصنع بهذا التكليف . من ذا أدعو ؟ ومن ذا يستجيب لى ؟

ما هذا قول مغامر دعى أفاق يلتمس مغنما ويرسم خطة للكسب أو يهتبل فرصة مواتية للظفر . بل هذا قول من يرى نفسه مأموراً بما لا يكاد يطيق ، والطريق أمامه مسدود . فمن ذا يدعو فى عاصمة الأوثان إلى عبادة الله ؟ ومن ذا يستجيب له بين سدنة تلك الأوثان ؟ وإن هذا الحائر المتحسر لا يدرى بعد خطورة ما هو بسبيله . شأن من دبر أمراً وبيته بليل وحسب حساب العواقب . وإنما هو فارغ الذهن من ذلك كله . لا يحز به إلا من يدعوه إلى ربه ومن ذا عساه يستجيب لتلك الدعوة التى ألقيت على كاهله إلقاء . فلما قال له ورقة بن نوفل :

— ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك . إذن لأنصرنك نصراً مؤزراً .

قال محمد متعجباً :

— أو مخرجىَّ هم ؟ .

فقال له الرجل المجرب المطلع على تاريخ الأنبياء :

— لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى . وإن يدركنى يومك لأنصرن الله نصراً يعلمه .

« أو مخرجى هم » ؟ .

كلمة كافية وحدها للكشف عن مدى خلو باله من غاية الشوط الذى أمر أن يأخذ فيه . وأنه لم يفكر فى ذلك من قبل ولم يعد له عدته . ولم يوازن بين فرص الربح وفرص الخسران وبين جانب الفوز وجانب الخذلان ، وبين الثمن الذى يزمع أن يدفعه سواء خذل أو ظهر .

أجل : هذه الكلمة وحدها عنوان براءة محمد من تهمة الادعاء والتدبير المبيت لما يزعمه وحياً وتكليفاً ، لو نظر فيها من له قلب سليم من الأهواء .

* * *

وشرع محمد كما أوحى إليه ينذر عشيرته الأقربين ، وآمنت خديجة به فكانت أول المؤمنين . ثم انتظر محمد أن يدله الوحى على ما يفعل لإنذار الناس ومحاجتهم وهدايتهم . فإذا الوحى يبطىء عليه . حتى ظن أنه كان مخدوعاً فيما تراءى له من قبل ، أو أن ربه انصرف عنه بعد أن اصطفاه . وتملكه فزع ووجل .

وطال انقطاع الوحى ، وهو حائر يتردد بين حراء ودروب الصحراء . واشتد به الأمر حتى ظن أن ربه قلاه ، فحزن واغتم وراود قلبه اليأس لولا أن ظهر له الوحى ونزلت عليه سورة الضحى المشهورة :

« والضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأولَى . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى . وَوَجَدكَ عَائِلاً فَأَغْنَى . فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » .

عجباً ! فيم هذا العذاب كله لو كان محمد واضع هذا القرآن مدعياً ملفقاً ؟ ما كان أغناه عن فضيحة فتور الوحى لو لم يكن أميناً غير متصنع ولا مموه . وإنما هو الصدق الصراح بغير تعديل أو تحوير ؟..

***

ثم مسألة الروح ..

سأله القرشيون خارقة ، فقال « إِنْ أَنا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ »

فسألوه عن الروح ما هى ؟ .. فقال لهم :

— أخبركم بما سألتم عنه غداً ..

ثم يمضى نيف وأسبوعان ومحمد لا يأتيهم بخبر الروح كما وعد ، وما عهدوه من قبل مخلفاً . ولا سيما وهو اليوم فى مقام التحدى لصدق دعواه .

وأبطأ الوحى . ومحمد مكروب لهذا الإبطاء . يتوسل ويتحنث

ويفزع إلى الله أن يرفع عنه هذا البلاء وينزل إليه وحيه ليرفع بين المشركين رأسه .

وما إن يظهر جبريل أخيراً حتى يعاتبه محمد لاحتباسه عنه ويصارحه أنه ساء ظناً لذلك الاحتباس فيكون الوحى .

« وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ، لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا » . « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ . وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَداً » ، «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ . قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي . وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً » .

ما كان أغناه عن هذا الكرب وهذا البلاء . وتعرضه لسخرية قريش وقد وعدهم الجواب غداً ، لو كان يملك القول من نفسه ، ولم يكن الأمر لربه ؟ .

« وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ » .

« وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ »

تأنيب واضح ، يرد الأمر إلى من بيده الأمر وما هو بقول دعى ، وما هو بمسلك المستقل بشأنه . وإنما هو المأمور ، الصادع بالأمر ، الصادق فى أمانة البلاغ المبين .

وما من دعى إلا وهو مطية الشعور بالنقص ، فيدفعه ذلك إلى المغالاة فى شأن نفسه ، والتزيد فى مدى قدرته .

وما كذلك كان محمد !

مر بقوم على رؤوس النخل ، فقال :

— ما يصنع هؤلاء ؟

فقالوا :

— يلقحون ، يجعلون الذكر فى الأنثى فتلقح .

فقال :

— ما أظن يغنى ذلك شيئاً .

فأخبروا بذلك فتركوه صادعين برأى الرسول . ونقصت غلة النخل ذلك العام وخرج شيصا ، فذكروا له ذلك فقال .

ـ « إنما أنا بشر . إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به . وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر . أنتم أعلم بأمور دنياكم ! »

وقيل إنه قال :

ـ إنما ظننت ظناً ، فلا تؤاخذونى بالظن !

لم يرتج عليه ، ولم يكابر . ولم يسؤه أنه أخطأ الظن . بل اعترف أنهم أعلم بشئون دنياهم . وما هكذا يكون موقف دعى يستولى عليه شعور النقص وهو أبين الأمراض التى تنتاب الأدعياء . .

وأكثر من هذا :

سمع قوما يختصمون ببابه ، فخرج إليهم . وإذا به — وهو الرسول المسموع المطاع يومئذ — يقول لهم .

— إنما أنا بشر ، وأنه يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك . فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو يتركها !

إنما أنا بشر أخطىء وأصيب

تلك مقالة من لا يخطر له الادّعاء ببال ، وإنما هو يَذكر ويُذكر دواما أنه كسائر الناس . وهكذا الصادق الذى لا يشغله تمويه حقيقته ليبدو أفضل مما هو .

وسلام على الصادقين .

الجهاد الأكبر

الجهاد الأكبر جهاد النفس . .

هو قائلها . وإنه في ذلك الجهاد لفارسه المعلم ، وبطله الذي لا يشق له غبار .

رجل فرد هو لسان السماء . فوقه الله لا سواه . ومن تحته سائر عباد الله من المؤمنين . ولكن هذا الرجل يأبى أن يداخله من ذلك كبر . بل يشفق ، بل يفرق من ذلك و يحشد نفسه كلها لحرب الزهو في سريرته ، قبل أن يحاربه في سرائر تابعيه .

ولو أن هذا الرسول بما أنعم من الهداية على الناس وما تم له من العزة والأيادي ، وما استقام له من السلطان ، اعتد بذلك كله واعتز ، لما كان عليه جناح من أحد ، لأنه إنما يعتد بقيمة ماثلة ، ويعتز بعزة طائلة .

يطريه أصحابه بالحق الذي يعلمون عنه ، فيقول لهم :

— لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم . إنما أنا عبدالله ، فقولوا : عبد الله ورسوله .

ويخرج على جماعة من أصحابه فينهضون تعظيما له ، فينهاهم عن ذلك قائلا :

— لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا !

ويعرض المريض من أدنى الناس فيعوده . ويموت طائر يلعب به طفل هو أخو خادمه فيعزيه فى مصابه ، وقد يدعوه عبد أو مسكين إلى طعام فلا يمتنع . ويداعب الأطفال من أبناء تابعيه وأصحابه ويجلسهم فى حجره . ويمازح أصحابه ويتبسط فى الحديث معهم . ويعنى نفسه بقضاء حاجة الفقير والضعيف ، ويؤاكل خدمه ويشاربهم ، ويحمل عنهم بعض أعباء عملهم فى البيت وغير البيت .

وكان حفيده الحسن بن على من فاطمة الزهراء يركب ظهره وهو يصلى بالناس ساجداً ، فيظل على سجوده حتى لا يعجله لينزل عن ظهره !

وقد ينهض لخدمة ضيوفه بنفسه تزيداً من إكرامهم . كما فعل بوفد نجاشى الحبشة .

ذلك هو الرسول الذى خاطبه الله فى القرآن قائلا :

« وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

وأى خفض جناح أكثر من عدله وقصاصه من نفس كلما كان لأحد لديه حق ؟

فها هو ذا يوم بدر ، والمعركة غير متكافئة بين المسلمين وقريش . وهى بعد أول معركة يخوضها المسلمون ، وعليها يتوقف مستقبل الدعوة كله ، لأن قريشاً — على حد قول الرسول وهو يتضرع إلى ربه يسأله النصر — « قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحارب وتكذب رسولك »

فى هذه الموقعة ، والموقف متحرج غاية الحرج ، أخذ النبى يسوى الناس صفا صفا ، ليستقبلوا العدو على تعبئة ونظام . وكان فى يده عود يشير به إلى من يأمره فيتقدم أو يتأخر ليستوى الصف

وخرج رجل من سواد الجند عن الصف ، اسمه سواد بن غزية ، فدفع النبى بالعود فى بطنه ليستوى : فقال له سواد :

— يا رسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل ! فأقدْنِى يا رسول الله ومَكّنّى من نفسك لأقتص منك !

ووقف النبى متمهلا كى يقتص منه سواد دفعة فى البطن بدفعة فى البطن ، ولكن الرجل قال :

— إن عليك قميصاً وليس علىّ قميص !

فرفع الرسول قميصه عن بطنه متأهباً للقصاص من نفسه !

وليس يعنينا أن الرجل لم يقتص من النبى ، بل عانقه وقبل

بطنه العارى ليكون مس جلده آخر عهده بالدنيا.. فما كان الرسول يتوقع هذا ، بل كان يتوقع القاصة التى تهيأ لها عن طيب خاطر .

***

وتحضر النبى الوفاة ، وقد هدى الناس وأمهم ، « وما كان راعى غنم يتبع بها رؤوس الجبال بأنصب ولا أدأب منه فى المسلمين » كما قال عمه العباس ، فلا يعنيه فى آخر خطبة له بالمسجد وقد تحامل على نفسه وبرز إلى المسجد إلا أن يقول :

— أيها الناس ! ألا من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه ! ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ! ولا يخشى الشحناء من قبلى فإنها ليست من شأنى ؟ ألا وإن أحبكم إلىّ من أخذ منى حقاً إن كان له ، أو حللنى فلقيت ربى وأنا طيب النفس !

ما أعظم وما أروع !

ما من مرة تلوت تلك الكلمات أو تذكرتها إلا مرت فى جسمى قشعريرة ، كأنى أنظر من وهدة فى الأرض إلى قمة شاهقة تنخلع الرقاب دون ذراها

أبعد كل ما قدمت يا أبا القاسم لقومك من الهداية والبر والرحمة والفضل ، إذ أخرجتهم من الظلمات إلى النور ، تراك

بحاجة إلى هذه المقاصة كى تلقى ربك طيب النفس وقد غفر لك من قبل ما تقدم من ذنبك وما تأخر .

ولكن العدل عندك مبدأ . العدل عندك خُلُق ، وليس وسيلة .

وعسير بلوغ هاتيك جداً تلك عليا مراتب الأنبياء

* * *

وزهدك يا محمد ؟

زهدك وقد أحلت لأمتك الطيبات ، وحببت إليك ؟ .

هذه أم سلمة زوجك تصف ما وجدته فى دارك ليلة عرسها — نظرت فإذا جرة فيها شىء من شعير ، وإذا رحى وبرمة وقدر وقصب . فأخذت ذلك الشعير فطحنته ، ثم عصدت البرمة ، وأخذت القصب فأدمته ، فكان ذلك طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعام أهله ليلة عرسه !

وكل كلام بعد هذا الوصف الساذج الصادق فضول غث فى التعليق على زهد الرجل الذى لم يؤت أحد فى زمانه سلطانا على أصحابه كما أوتى ، لولا أنه يرى برهان ربه رأى العيان ، فتصغر فى عينه الدنيا وما فيها . . . ويؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة ويؤثر على آله ولو كان بهم خصاصة . ولا يدخر لغده شيئا .

أليس قد مات ودرعه مرهونة عند يهودى فى قوت عياله ؟

ومن هو ؟

هو السيد غير منازع ، وقد أوتى الفتح المبين . وعنت له رؤوس المعاندين . ولكنه كان مشغولا بأن يسود نفسه لا بأن يسود الناس

لهذا كان ينام على حشية من ليف . ولم يبلغ من طعام حد الشبع . ولم يطعم خبز الشعير يومين متواليين ، وجعل طعامه التمر ، لا يتفق له ولآله أكل الثريد كثيراً . وكم من مرة ربط على بطنه حجراً ليقاوم الجوع حين يشتد عليه .

وهذه عائشة أصغر زوجاته وآثرهن لديه بعد خديجة تصف طعام زوجها العظيم الذى لم يؤت كسرى ولا قيصر مثل سلطانه على قومه :

« ولم يأكل النبى خبزاً مرققا ولا أكل خبزاً نقياً . وقد جاءت إليه فاطمة ابنته يوماً بكسرة خبز فقال :

— ماهذه الكسرة يافاطمة ؟ .

قالت :

— قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى آتيك بهذه الكسرة

فقال صلى الله عليه وسلم :

— أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام » !

ودخل أبو بكر بيت النبي ليلا ، فلم يجد سراجاً ، فسأل ابنته عائشة :

— أما لكم سراج ؟

فقالت :

— لو كان لنا مانسرج به أكلناه !

وماذا يسرج به ؟ الدهن أو الزيت . وذاك ما كان يعوز نبياً وهو لا يعوز أفقر أتباعه الذين يفدونه بالنفس والنفيس .

قمة شاهقة فى الزهد لا يطيقها كثيرون . فلا عجب أن نرى زوجاته يتضجرون بهذا الضيق ، وهو الذى يملك خمس الغنائم بشريعة القرآن ، فيهلك ذلك فى الصدقات ولا يستبقى لآله من الطيبات شيئاً ، حتى يتحسرن على مايوقد به السراج ليأكلنه عسى أن يرد عنهن غائلة الجوع . وهن يرين زوجات أدنى المسلمين شأناً أوسع منهن رزقاً وأحظى بالرفاهية والزينة .

وصارحنه بما فى نفوسهن من الضيق بهذا الضنك . فآلى أن يعتزلهن جميعاً شهراً من الزمان ، حتى تحدث الناس أن النبى طلق أزواجه .

وذهب النبى فملا يخيرهن بين الطلاق والرضا بما أخذ نفسه به من المعيشة !

وليس يعنينا هاهنا أنهن جميعاً اخترن الحياة معه على الوجه

الذى يريد لنفسه ولهن ، فما كان يدرى شيئاً من هذا حين خيرهن ذلك الخيار . بل كان موطناً نفسه على أنهن قد يخترن ماتصبو إليه نفوسهن من زينة الحياة الدنيا . . وكان مستعداً لهذا الموقف مؤثراً زهده على كل شىء ! . .

وعمر الزاهد المخشوشن ليس فى زهده إلا تلميذاً لهذا الزاهد المطبوع . وقد رآه يوماً وقد أثر فى جنبه الحصير الذى يفترشه لنومه ، فقال له:

— يارسول الله ! قد أثر فى جنبك هذا الحصير . وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله ! ؟ .

فاستوى النبى جالسا وقال :

« أفى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا ! »

ذلكم هو الرجل الذى كان الزهد عنده طبعا لا ضرورة . وغنى نفس لا فقراً ولا عجزاً . . فإنه كان أقدر القادرين على البذخ ، لولا أن الاقتدار على نفسه كان مقدماً عنده على الاقتدار على المناعم والطيبات .

***

وفتنة السلطان ياأبا القاسم ؟

ماعرفت شيئاً يغير الرجال ويمتحن معادنهم مثل فتنـــة

السلطان ، ومارأيت رجلا — إلا الأقل الأقل — لم تغيره بوادر النفوذ ، ولم تدر رأسه خمر الساطة . فإذا خيلاء وصَيَد تنتفش له النفس ، حتى ليصدقنى فيهم قول القائل : إنهم ينحطون باطنا كلما ارتفعوا ظاهراً ، وإن فيهم الفتى الغر الذى لا يحسن من أمر نفسه شيئاً ، فضلا عن أمور الناس ، وينتفش بما ألقى إليه من فتات الأمر والنهى كأنه الديك الرومى ، أو يتثاقل فى خطوه وقد برز صدره ورأسه ، كأنه شتربة يتأهب للنطاح !

وما سلطان هؤلاء الأغرار الهلافيت فى جانب ما أوتيت أنت من السلطان يا أبا القاسم ، يالسان السماء ، وياحاكم الدنيا ، ويامن لا يعلو سلطانك على أتباعك من بنى آدم سلطان ، فليس فوقك إلا المهيمن الأحد ؟ .

هباء سلطان أولئك جميعا مهما علوا واستطالوا إلى جانب سلطانك ، أو أهون من الهباء .

ومافتنك سلطان . وقد انتهيت من العنت والبأس والحصار والمطاردة ، إلى النصر المؤزر ، والفتح المبين والطاعة العميـاء والسؤدد الذى لم ينبغ لأحد من قبل ولا من بعد !

يسمع الابن البكر أنك وجدت على أبيه ذى الأيد والبأس فيأتيك يسألك الرخصة أن يضرب عنقه ، فهو أولى بذلك من سائر الناس ، لتكون لك به قرة عين ثم تأبى أنت وتعفو وتصفح عن ذلك الغادر المتآمر كرامة لولده الطائع .

إلى هذا المدى بلغ سلطانك ، وناهيك به من سلطان . فما دار لك رأس ، ولا ركبتك خيلاء ، ولا أصابك تيه وزهو ! بل كنت تمشي فى الأرض هونا . وتزداد مع نمو سلطانك تواضعا لله وخفض جناح للمؤمنين ! وكنت تقول وتعيد القول لا تمل من تكريره :

ــ إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد !

وتذهب مع أبى هريرة إلى السوق فتشترى لنفسك سراويل ويثب البائع إلى يدك ليقبلها ، فتجذب يدك من يده مستنكرا وتقول له :

ــ هذا تفعله الأعاجم بملوكها . ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم « رجل منكم »

وما كان ملك من ملوك الأعاجم أو غير الأعاجم أبعد منك نفوذا فى قومه ، ولا أمضى كلمة وسلطانا منك فى رعاياه .. ولكنها عصمة الله التى عصمك بها من فتنة ذلك السلطان ، وإنه لكبير

أجل كبير أمر ذلك السلطان ، وكبير ماقام عليه من الحق والهدى والفضل العميم ، ولكن لباب المسألة كلها أنك كنت أكبر من سلطانك هذا الكبير ، ولم يكفك أن ترى نفسك أجل من خيلاء تقبيل اليد ، فإذا بك تقول لأبى هريرة وقد تقدم يحمل عنك ما اشتريت :

— صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله !

«رجل منكم»

ذلك ماأردت لنفسك ، وماأرادته لك خلة التواضع السمح . بل أراده لك صدق الإيمان بأن لله الأمر جميعا ، وأن ليس لك من الأمر شيء !

ويأتيك الرجل من الأعراب ليبايعك يوم الفتح الرهيب ، وأنت فوق قمة السلطان ، فتأخذه الرهبة بين يديك ويرتعد ، فتأخذك من ذلك دهشة رائعة فى بساطتها وتقول له :

— «هون عليك ! لست بملك ! إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » !

إنى والله لأخجل من قوم أراهم بعد ذلك يأخذهم الزهو بالمنصب ويركبهم الافتتان بالسلطان ، وأنا أتمثلك فى هذا الموقف الذى لا تدانيه فى علوه وقفات المواهل الفاتحين . وإن مجد هذه الكلمة وحدها ليرجح فى نظرى فتوح الغزاة كافة ، وأبهة القياصر أجمعين ...

أنت بأجمك فى هـــــذه الكلمة ، وما أضخمها أيها الصادق الأمين !

ثم سلام على الصادقين

لابدّ مما ليس منه بدّ

ماذا بقى من مزعم لزاعم ؟،

إيمان امتحنه البلاء طويلا قبل أن يفــاء غليه النصر ، وما كان النصر متوقعا أو شبه متوقع لذلك الداعى إلى الله فى عاصمة الأوثان والأزلام ! .

وعقيدة جاءت فى طورها الطبيعى ملبية حاجة الإنسان الطبيعية ، موفقة بين دينه ودنياه ، ومتلافية تلك القسمة المسقمة بين الروح والبدن ، فى السر والعلن . : .

ونزاهة ترتفع فوق المنافع ، وسمو يتعفف عن بهارج الحياة ، وسماحة لايداخلها زهو أو استطالة بسلطان مطاع . . .

لم يفد ، ولم يورث آله ، ولم يحمل لذريته وعشيرته ميزة من ميزات الدنيا ونعيمها وسلطانها . وحرم على نفسه ماأحل لآحاد الناس من أتباعه ، وألغى ما كان لقبيلته من تقدم على الناس فى الجاهلية ، حتى جعل العبدان والأحابيش سواسية وملوك قريش !

لم يمكن لنفسه ، ولالذويه . وكانت لذويه بحكم الجاهلية

صدارة غير مدفوعة ، فسوى ذلك كله بالأرض ! .

***

أى قالة بعد هذا تنهض على قدمين لتطاول هذا المجد الشاهق ، أو تدافع هذا الصدق الصادق ؟ .

لاخيرة فى الأمر :

مانطق هذا الرسول عن الهوى .

لاخيرة فى الأمر :

ماضل هذا الرسول ، وماغوى ...

لاخيرة فى الأمر :

وما صدق بشر إن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين ...

فسلام عليه بماهدى من سبيل ، وما قوّم من نهج ، وما بين من محجّة . . .

وسلام على الصادقين . . .

محتويات الكتاب



من يغلق عينيه دون النور يضير عينيه ولا يضير النور، ومن يغلق عقله وضميره دون الحق ، يضير عقله وضميره ولا يضير الحق.

فالنور منفعة للرائي لا للمصباح، والحق منفعة وإحسان إلي المهتدى به لا إلي الهادي إليه.

وما من آفة تهدر العقول البشرية كما يهدرها التعصب الذميم الذي يفرض على أذهان أصحابه وسرائرهم ما هو أسوأ من العمي لذى البصر، ومن الصمم لذي السمع، لأن الأعمي قد يبقي بعد فقد البصر إنسانا، والأصم قد يبقي بعد فقد السمع إنسانا.. أما من اختلت موازين عقله أو موازين وجدانه، حتي ما يميز الخبيث من الطيب، فذلك ليس بإنسان بالمعني المقصود من كلمة إنسان.

وبهدي من هذا النهج وجد نظمي لوقا من واجبه أن يكتب صفحات هذا الكتاب "محمد.. الرسالة والرسول" موقنا أن الإنصاف حلية يكرم بها المنصف نفسه قبل أن يكرم بها من ينصفهم..

الهيئة العامة لقصور الثقافة

www.gocp.gov.eg

الثمن: ثلاثة جنيهات